د. بشار خليف

العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم

مقاربات أركيولوجية –تاريخية – نفسية

المحتويات

الإهداء..*4*

مقدمة المؤلف...*7*

المدخل...*13*

الفصل الأول:

حضارة المشرق العربي – مليون سنة.................................*20*

التواجد العبراني حوالي مئة سنة في بلاد كنعان

– النطوفي السوري يؤكد الوحدة الحضارية للمشرق العربي/ بلاد الشام.*26*

– مراجع الفصل الأول..*35*

الفصل الثاني:

– العصور التاريخية في المشرق العربي 3100–1250ق.م............*38*

– الوضع السياسي والدولي منذ 1800– نهاية 1500ق.م................*49*

– استنتاجات حول العصور التاريخية في المشرق العربي...............*52*

– مراجع الفصل الثاني..*54*

الفصل الثالث:

– طروء العبرانيين على بلاد كنعان الجنوبية 1250 ق.م...............*57*

– السبي البابلي الكبير 586 ق.م...*64*

– مراجع الفصل الثالث..*74*

الفصل الرابع :

- التوراة في أسفار الخمسة الأولى.....78
- اختلاق موسى التوراتي ومناقشة معجزاته من زاوية الحقائق العلمية..82
- مملكة داود وسليمان / المملكة الموحدة /.....89
- مراجع الفصل الرابع.....93

الفصل الخامس:

- انتحالات التوراة من تراث المشرق العربي القديم.....96
-
الكنعاني.....100
- الرافدي.....110
- مصير العبرانيين في بلاد كنعان الجنوبية.....116
- مراجع الفصل الخامس.....122

الفصل السادس:

- المؤرخون الجدد في إسرائيل.....126
الانهيار الأخير للمدرسة التوراتية الأثرية
- مراجع الفصل السادس.....136

الفصل السابع:

- مقاربة سوسيولوجية – نفسية للثقافة العبرانية التوراتية.....138
- المنحى الداخلي.....140
١- يهوه
٢- أرض الميعاد التوراتية / الصورة الهوامية /.....144

- المجتمع للمؤسسة العبرانية الكهنوتية وليس العكس.....147
- مراجع الفصل السابع.....151
الخاتمة.....152
الخرائط.....155

الإهداء لـ:

إلى جان

آرام

جان كارمن

رام.

تقديم

هذا كتاب يُقرأ من صفحته الأولى إلى صفحته الأخيرة.
تشدّك سطوره، وتبهرك الأفكار المتلاحقة فيها بعرض رشيق، سلس.
أسلوب الكتاب جديد، مفعم بالحيوية، يشعرك بأن وراءه تطلع شَغِف بمتابعة الحقيقة، ويترك لديك انطباعاً بأنك مُرحّب به في هذه المتابعة.
يأتي هذا الكتاب للدكتور بشار خليف بعد فترة قصيرة من صدور كتابه المهم " دراسات في حضارة المشرق العربي القديم ". ولقد أفرد لموضوع العبرانيين في تاريخ المشرق العربي القديم كتابه الجديد، ففعل حسناً بهذا. ذلك أن التعامل مع هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة، لا سيما أن جانباً منه يتعامل مع طروحات كادت، بدوافع مشبوهة، أن تكون من المسلمات.
وهي دراسة ينبغي أن تنجز بشفافية وموضوعية ومنهجية واضحة، وأظن أن الدكتور خليف قد وفق بذلك. ومبعث ظني هذا يتجلى من خلال وضوح شخصية الباحث وأسلوبه المتميز، وقدرته على التعامل المباشر مع الفكرة، والانتقاء الصحيح لما يقتبس وبلورة الدليل منه.
وقد يتوقف القارئ في أكثر من موضع أثناء قراءته للكتاب، لا لينشد استراحة وإنما ليتمنى استفاضة أكثر في الطرح أو لتأمل ما هو مطروح والإحساس بالتآلف معه.

أ.د نائل حنون / العراق /
أستاذ اللغة الأكادية وآدابها
جامعة دمشق

" إن الحفريات الأثرية المكثفة في أرض (إسرائيل) خلال القرن العشرين، قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة،

كل شيء مُختلق،

ونحن لم نعثر على شيء يتفق والرواية التوراتية.

إن قصص الآباء في سفر التكوين / ابراهيم – يعقوب – اسحق / هي مجرد أساطير.

نحن لم نهبط إلى مصر، ولم نخرج منها.

نحن لم نته في صحراء سيناء.

نحن لم ندخل إلى فلسطين بحملة عسكرية.

وأصعب الأمور أن المملكة الموحدة لداود وسليمان التي توصف في التوراة بأنها دولة عظمى، كانت في أفضل الأحوال مملكة قبلية صغيرة.

إنني أدرك باعتباري واحداً من أبناء الشعب اليهودي وتلميذاً للمدرسة التوراتية، مدى الإحباط الناجم عن الهوة بين آمالنا في إثبات تاريخية التوراة، وبين الحقائق التي تتكشف على أرض الواقع "

عالم الآثار الإسرائيلي " زئيف هيرتزوغ "

(صحيفة هآرتس 28/10/1999)

نقلاً عن السفير اللبنانية 1/11/1999

مقدمة المؤلف

ترى، ما الذي يدفع كاتباً مثل هينريش هايني الألماني واليهودي كي يقول لأحد رجال الدين اليهود في أحد مؤلفاته:

" يبدو لي أنني حتى في أحسن عصوركم، في ظل ملككم داود، وفي عصركم الذهبي، كنت سأفرّ منكم لأركض نحو هياكل آشور وبابل التي كانت ملأى بالحب ومرح الحياة "*

وأيضاً، ما الذي يدفع مؤرخاً على قدر كبير من الأهمية هو الفرنسي جان بوتيرو، والذي بدأ في دراسته أولاً للتوراة وعالمها الكهنوتي، ثم انعطف نحو دراسة حضارة المشرق العربي القديم ووثائقه ليصل في النهاية إلى القول:**

" هناك نقطة ما زلت أتمسك بها وهي أن علم الآشوريات/ الوثائق المسمارية / يملك امتيازاً عظيماً جداً وثميناً جداً.

لقد جعلني عاجزاً عن إيذاء أي كان في العالم، عن إزعاج أي كان.

عن تعكير صفو أحد. ألا يعتبر ذلك في هذه الأوقات امتيازاً مدهشاً وشديد الندرة.

لقد حيّدني علم الآشوريات وجعلني جذرياً، غير مؤذ، لذا تمسكت به وما زلت مثابراً "*

ثم، ماذا يعني قول الكاتب اليهودي " اسحق دويتشر ":

" هل سنقبل الآن أن تكون الروابط العرقية أي (نداء الدم) هو الذي يصنع المتحد اليهودي ؟ ألا يكون ذلك انتصاراً لهتلر وفلسفته الساقطة ؟ "

****

إن هذه الأقوال وغيرها الكثير الكثير، تدفع المرء للتأمل ليس فيما حوته بقدر ما يكمن وراءها.

فالمعلوم أن وثائق المشرق العربي القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد وعلى مدى الألف الثاني ثم الألف الأول مع النقوش الآرامية والهيروغليفية المصرية، كل هذه قدمت بانوراما كاملة وواسعة لطيف الحياة المشرقية والمصرية من فنون واعتقادات وذهنيات وأساطير وعلوم إلى ما هنالك.

بالإضافة إلى الشواهد الضخمة من العمران والمدن وفيض الإبداع المجتمعي أولاً وحكماً الإنساني، ولعل كل هذا هو ما دفع مؤرخاً مثل " جان بوتيرو" لقوله السالف والذي يعني أن هكذا تراث يعيد صياغة الإنسان وفق ناظم إنساني خلاّق يشكّل جوهر الوجود الإنساني.

ولعل ما سنناقشه في هذا المؤلف، سيخلق حالة متضادة على صعيد الحياة البشرية، فوسط الإشراق الهائل الذي أوضحه " جان بوتيرو " مثلاً سنلحظ أن ثمة جانباً قاتماً عبّر عن نفسه، بما يعاكس ناظم الاجتماع البشري الخلاق. وهذا ليس افتراضاً، بقدر ما هو استنتاج فرضته الحقائق والمعطيات الأثرية والتاريخية.

وإن كانت المؤسسة الكهنوتية العبرانية قد استطاعت فرض توراتها على العلوم بمناحيها المختلفة ولا سيما علم الآثار وعلم التاريخ ولفترة

طويلة حتى استطاعت أن تفتل العقل الغربي عن محوره العلمي، إلا أن هذا العقل الذي كشف مواقع حضارة المشرق العربي القديم ووثائقه، استطاع أن يعلن بدء انفكاك الوهم التوراتي عن الحقائق الأثرية العلمية ولو بشكل خجول في البدء / خوفاً أو حذراً /، لكنه استطاع أخيراً أن يؤسس لمدرسة جديدة وحقيقية، عنيتُ مدرسة الآثار الغربية الجديدة التي نفضت عنها أوهام الكهنوت لتعلن بداية عصر آثاري علمي جديد.

وليس أدل على ذلك، من مؤلفات " توماس طومسون " والذي طرد من جامعة ميلووكي في الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة لأطروحاته المناوئة للمدرسة التوراتية.

ثم كيث وايتلام وجان بوتيرو وزينون كاسيدوفسكي وغيرهم.

ثم سوف تكرّ المسبحة باتجاه " إسرائيل " حيث نشهد منذ الثلث الأخير من القرن العشرين بروز تيار أطلق عليه تيار " المؤرخين الجدد " الذي كان يسعى قبل هذا إلى إثبات شرعية إسرائيل التاريخية على حساب الآثار المشرقية العربية في جنوب بلاد كنعان. ونتيجة للإحباط والفشل في مهامه بدأ أنصار هذا التيار يواجهون أنفسهم ومؤسساتهم الزمنية والكهنوتية، حتى أعلنوا صراحة بطلان وزيف النظرية التوراتية الآثارية التاريخية وهذا ما يمنح بعداً معرفياً وعلمياً لجهة إسقاط الشرعية التاريخية عن " إسرائيل ".

والحقيقة، أن للعبرانيين في المشرق العربي، تاريخ متخيّل عبّر عن نفسه بالتوراة. وتاريخ واقعي عبّرت عنه المعطيات الآثارية والتاريخية بشكل ضحل وخفيف ويبدو أنه من الحيف أن يذكر وسط حضارة المشرق العربي الواغلة في القدم والمعبّرة عن مكنوناتها في الاستقرار والتفاعل والتمازج

والانفتاح الإنساني وجملة المنجزات الحضارية التي أسست لتطور الحياة الإنسانية.

وكما هو معلوم فإن طروء العبرانيين إلى بلاد كنعان الجنوبية وتواجدهم فيها بشكل أولي وبثقافة رعوية منغلقة لحدود 100عام، لا تدفع المرء إلى الاعتقاد بإنجاز عبراني ما.

فالمعلوم أن المجتمعات الإنسانية لا يمكن لها أن تحقق تقدماً ومنجزاً حضارياً، إن لم تكن تمتلك أرضية للاستقرار أولاً وللتفاعل ثانياً، وتمدّنا علوم الاجتماع الإنساني بأن تراكم المنجز لا يمكن أن يتم إلا بتبلور معالم الاستقرار والتفاعل الاجتماعي – الديمغرافي ثم تفاعل البيئة الاجتماعية مع البيئة الطبيعية والمحيط الحيوي.

وعلى هذا نفهم من خلال هذا المؤلف أن ثمة تضاداً يفرض نفسه، بين عالم أصيل ومنفتح وإنساني تجاه عالم مؤقت وطارئ لا يتحقق معنى وجوده إلا بتحطيم العالم الأول.

هكذا كانت حضارة المشرق بإشراقها مقابل نقطة ظلام خلخلت هذا التجانس الحضاري والإبداع الإنساني.

أيضاً، سوف نلحظ من خلال مناقشاتنا في هذا الكتاب إلى أن ثمة تماه بين مؤسستين يفصل بينهما 2500 عام تقريباً،

عنيتُ المؤسسة الكهنوتية العبرانية في حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد، والحركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر.

فإن كانت الصهيونية قد قامت كرد فعل على ذوبان اليهود في المحيط الذي يتواجدون فيه / دويتشر/، فكذلك كان قيام المؤسسة الكهنوتية البدائية قبل حوالي 2500عام.

وعليه، نكون إزاء منظومة قيمية منغلقة وإستعلائية تحاول فرض إشراطاتها ومصالحها على ما سواها وهذا ما نحن في خضمه منذ اغتصاب فلسطين في حوالي منتصف القرن العشرين، مع فارق في الواقع الديمغرافي اليهودي.

فإن كان أولئك هم اليهود الشرقيون، فإن هؤلاء لا يمتّون بأوهى صلة لليهود ومعظمهم يعود للمتهودين الخزريين. وعلى هذا نفهم قول دويتشر:

" إن دولة إسرائيل هي قبل كل شيء من صنع يهود / والأصح متهودي / أوروبا الشرقية ولا سيما يهود روسيا وبولونيا وليتوانيا.. وعندما أعلنت الدولة الإسرائيلية عام /1948/ كان الإسرائيليون من أصل روسي وبولوني يشكلون ما يقرب من نصف السكان فيها ".

والحقيقة التي ينبغي أن تفرض نفسها، هي أن المشرق العربي لا يمكن عبر خصائصه المجتمعية – الإنسانية أن يهضم من لا قدرة له على " الانهضام !"

وأن الحقائق العلمية/ آثارية وتاريخية / تقدّم الأدلة على أصالة حضارة المشرق العربي التي تعود إلى مليون عام مقابل فترة طروء هزيلة لا تتعدى المئة عام / بين 1040–932 ق.م/ للعبرانيين، ثم فترة ما بعد السبي والتي لا تتعدى ثمانين عاماً / بين 142–63 ق.م /.***
واعتباراً من 135 م سوف يتم اقتلاع جذور جماع السكان اليهود من فلسطين.**

*** – اسحق دويتشر – من هو اليهودي – ت: نجاة قصاب حسن. دار العروبة – سورية ١٩٦٧.**

****– نستخدم " التوراة " كصيغة مذكّرة وفيما نعنيه كتاب التوراة.**

***** – جان بوتيرو. بابل والكتاب المقدس – ت: روز مخلوف – دار كنعان– دمشق ٢٠٠٠.**

****** – اسحق دويتشر – مرجع سابق**

******* في هذا المجال نقترح على القارئ الكريم أن يكون لديه إلمام بالتوراة، أو أن تكون مقروءة على الأقل، حيث أننا تجنبنا في هذا الكتاب الدخول في تفاصيل الأسفار كي يكون الهدف مكثفاً وواضحاً في آن. مع الحفاظ على منهجية البحث، بحيث يستطيع القارئ أن يشاركنا بحثنا بشكل أو بآخر.**

﴿ المدخل ﴾

تُجمع الدراسات التاريخية الحديثة والمستندة إلى حقائق التنقيبات الأثرية التي جرت في فلسطين، على انعدام أي دليل أثري أو مادي أو كتابي يؤكد وجوداً عبرانياً حقيقياً وفاعلاً في بلاد كنعان الجنوبية.

لا بل إن الدراسات الرصينة والعلمية لكبار الباحثين والأركيولوجيين تُشكك في وجود عبراني منظم وفاعل في مصر، ومن ثم في اختلاق قصة الخروج من مصر عبر سيناء إلى بلاد كنعان واقتحام هذه بحملة عسكرية ضخمة.

وما يزيد من مصداقية هذا الطرح، أن ثمة اتجاهات لدى الأركيولوجيين الإسرائيليين المعاصرين تؤكد كل ذلك وهم ما اتفق على تسميتهم بالمؤرخين الجدد.

أيضاً، تبين نتيجة الدراسات والأبحاث الموضوعية أن كتاب التوراة ولا سيما في أسفاره الخمسة الأولى / التكوين – الخروج – اللاويين – العدد – التثنية / والتي جُيّرت لموسى التوراتي، تبيّن أن لا رابط بينها وبينه، حيث كتبت بعد حوالي / 600 /عاماً من وجوده المفترض في التوراة، وقد كتبها الأحبار اليهود، رواد المؤسسة الكهنوتية العبرانية إبّان السبي البابلي.

حيث أن " الحقائق التاريخية "! التي ذكرها الأحبار، أخذت مفاعيلها مع الزمن، وبات التاريخ الإنساني بشكل عام، وتاريخ المشرق العربي ومصر بخاصة يُقرأ وفق الرواية التوراتية. إلى أن بدأت الكشوفات الأثرية بدءاً من القرن التاسع عشر تميط اللثام عن المخزون الحضاري التاريخي

والكتابي بدءاً من الجناح الشرقي الرافدي للمشرق العربي، ثم تتالت الكشوفات على مدى مواقع المشرق إلى يومنا هذا.

ولعل الهزة الأولى التي بدأت تزلزل رواية التاريخ التوراتي، شكّلت مفصلاً هاماً في إسقاط النظرية التوراتية في قراءة تاريخ منطقة المشرق العربي.

ففي 3/12/1872 وقف جورج سميث أمام جمعية الآثار التوراتية في لندن ليعلن اكتشاف رقم مسمارية في موقع مدينة نينوى، تحتوي على وقائع مشابهة بشكل صميم لرواية الطوفان التوراتية، بما يعني أن التوراة أخذ هذه الرواية من وثائق المشرق العربي القديم.

وبذا يصرح سميث " أن التوراة لم يعد هذا الكتاب الذي يختلف عن بقية الكتب..وليس الكتاب الذي أملاه الله أو كتبه بنفسه ".1

وباطراد ومع المزيد من الكشوف والوثائق لمواقع بابل وأوغاريت وإبلا وماري ونوزي وأور...الخ. اتضح أن معظم مرويات التوراة ولا سيما في أسفاره الخمسة الأولى، منحولة عن تراث المشرق العربي الذهني والفكري والأدبي والحقوقي ومنها ما هو مختلق ولا يتناسب مع روحية المشرق العربي المنفتحة.

ولعل الأمر الأخطر من هذا، هو تعّمد كتّاب التوراة إلى صياغة مفترضة وهجينة لتواجدهم في المشرق العربي وذلك عبر إرجاع تواجدهم المزعوم في البدء إلى مدينة (أور) الرافدية عبر جدّهم المزعوم ابراهيم التوراتي وذلك في حوالي 1900 قبل الميلاد.

ثم وبنتيجة طروءهم على بلاد كنعان في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد حيث بالغوا وضخموا من أخبارهم بما نفته الحقائق الأثرية. وهذا ما سنناقشه في سياق بحثنا.

كل هذا، يندغم مع وجودهم الافتراضي في مصر وقصة خروجهم منها بقيادة موسى التوراتي، بما نفته أيضاً الحقائق الأثرية والعلمية.

والغريب في كل هذا، أن الدارس لهذا الأمر يلاحظ مبلغ التضاد والتعاكس بين النفسية المشرقية الحضارية المنفتحة وبين نفسية المؤسسة الكهنوتية التوراتية التي خطّت التوراة في أسفاره الخمسة الأولى بما يعطي انطباعاً غير مألوف ومضاد لنفسية المشرق العربي وذهنيته بحيث يمكننا إيجاز ذلك بالقول أننا أمام صراع بين نفسية منفتحة وحضارية مقابل عالم ظلامي، مغلق، متحجر وحاقد كلّله الأحبار في توراتهم من أجل أن يبقى المجموع العبراني دون تفاعل مع محيطه وبالتالي الذوبان فيه.

أيضاً، لا يمكن فهم عقيدة التوراة عبر (يهوه) الإله الخاص لشعب مختار في أرض مختارة له، إلا من منظور عنصري ألصقته نفسية الأحبار بإلههم / الذي جاء مماثلاً لما يعتلج في خافيتهم/ لا شعورهم الجمعي/.

وعليه بتنا نفهم أن هذا التحجر والانغلاق والعنصرية الذي سعت المؤسسة الكهنوتية التوراتية إلى تكريسه لدى المجموع العبراني، كان من نتائجه تعرض العبرانيين عبر تاريخهم إلى النبذ والتأديب من قبل شعوب الأرض، فهو نتيجة لا سبب.

وعلى هذا نفهم لماذا أدّبهم المصريون في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد حين كانوا عبارة عن قبائل مرتحلة تعيش على السلب والنهب والارتزاق في أطراف بلاد كنعان.

ثم تعرضهم لتأديب الكنعانيين والفلسطينيين والآراميين والآشوريين والبابليين.

ويتبدى هذا الأمر جلياً في العصر الهلسنتي الذي اتسم بالتفاعل والتلاقح الفكري والحضاري بين الشعوب، فكان طبيعياً أن يتعرضوا لتأديب السلوقيين وصولاً إلى العصر الروماني حيث سيتم تدمير هيكلهم وتشتتهم في المحيط التاريخي الحيوي. وهؤلاء من يشكّلون بالأدبيات المعاصرة " اليهود الشرقيون " والذين لا رابط يربطهم مع المتهودين الخزريين / نسبة إلى إمبراطورية الخزر/ الذين اغتصبوا فلسطين في منتصف القرن العشرين وهم ينظرون إلى اليهود الشرقيين على أنهم أدنى مقاماً منهم.

تجاه كل هذا، سوف يكون اتجاه بحثنا يعتمد على مناقشة التواجد العبراني في المشرق العربي اعتماداً على المكتشفات الأثرية وبعيداً عن مبالغات ومغالطات التوراة واختلاقاته لا بل ودحضها.

بالإضافة إلى مناقشة المرويات التوراتية المنتحلة من تراث المشرق، وما سمي بخوارق موسى التوراتي، مروراً باصطلاح السامية ووصولاً إلى الإضاءة على حركة فكرية إسرائيلية جديدة أطلق عليها " المؤرخون الجدد " والذين أصبحوا يشكلون عبئاً معرفياً على البديهيات التاريخية التي سعت إليها المؤسسة الكهنوتية التوراتية وتالياً الحركة الصهيونية.

والذي نعتقده أن لا إمكانية لدراسة من هذا النوع، تكون مجدية، إن لم نسعى للإضاءة على حضارة المشرق العربي القديم بجناحيه /الرافدي والشامي/ لتبيان مدى ضحالة وضآلة فترة التواجد العبراني نسبة إلى عمق التواجد الحضاري للمشرق، عنيتُ فلسطين. بحيث أن تتبع خط الإشغال البشري المشرقي المتواصل والذي بدأت ملامحه بالوضوح والتبلور مع

الثقافة النطوفية صعداً نحو العصور اللاحقة، ستقدم دليلاً واضحاً مستنداً على الحقائق الآثارية والأنثروبولوجية وغيرها، على أن حركة الاجتماع البشري لكامل المشرق العربي آنذاك أخذت طابعاً تواصلياً ومستمراً حتى العصور اللاحقة وبشكل متجانس حتى طروء العبرانيين إلى أرض كنعان.

وإن أهم خاصية في حركة الاجتماع المشرقي كانت تتأسس على فعل التمازج والتفاعل الديمغرافي بين الأرومات الاجتماعية المختلفة بما يشكل في النهاية محصلة تعبّر عن كل هذا في نشوء شخصية مجتمعية منفتحة وأصيلة بنفس الوقت، عنيتُ، الشخصية المشرقية العربية.

والذي يبدو أن من شذّ عن هذه القاعدة كان التجمع العبراني الذي رفض قادته ومؤسسته الكهنوتية تفاعله مع محيطه الطبيعي أثناء طروءه على بلاد كنعان.

وعلى هذا يلاحظ أن آلية حركة التاريخ في المشرق لم تخلق ثنائية متضادة بين مؤسساته وبين الشعب المشرقي بمعنى أن المؤسسات كانت للمجتمع، في حين أن التجمع العبراني عانى من تدخل رجال الكهنوت المنغلقين ما أدى إلى اعتبار أن المجتمع العبراني عبر تاريخه كان للمؤسسة الكهنوتية وليس العكس.

وهنا برأينا يقع سبب هذه الإشكالية التي عصفت بالمشرق العربي القديم وصولاً إلى العصر الحاضر.

ثبت المراجع والهوامش:

المدخل:

1- جان بوتيرو- التوراة والمؤرخ- ت: عبد الهادي عباس- جهاد هواش – دار الحصاد – دمشق1990.

الفصل الأول

حضارة المشرق العربي – مليون سنة

التواجد العبراني 80-90 سنة / في بلاد كنعان الجنوبية /

على قاعدة أن الأداة الأولى التي صنّعها الإنسان القديم في المشرق العربي، تعبّر عن بدء الحضارة الإنسانية فيه، فإن الدلائل الأركيولوجية تقدم معطيات على أن الحضارة في المشرق بدأت مع حوالي مليون سنة إلى مليون ونصف المليون سنة(2). وذلك عبر ثقافة المجتمعات الأولية المنتصبة / نسبة للإنسان المنتصب الذي يؤرخ تواجده في حوالي مليون ونصف المليون سنة/.

وقد توثق ذلك في موقع ست مرخو في اللاذقية حيث عثر فيه على أدوات حجرية مصنّعة من فؤوس ومعاول وقواطع وسواطير وشظايا نوى صنعها إنسان المشرق آنذاك واستخدمها في شؤون حياته المختلفة ويرقى هذا الموقع إلى مليون سنة.

كما قدم العبيدية في فلسطين والذي يؤرخ في حوالي 700.000 سنة أدوات أكثر تطوراً وتقنية من موقع ست مرخو، وهذا يعود للتطور المتبدي في البنية الدماغية الإدراكية لدى هذا الإنسان. والجدير ذكره هنا هو أن موقع العبيدية قدّم آثاراً إنسانية للإنسان المنتصب هي عبارة عن أجزاء من جمجمة وأسنان (3).

أما موقع اللطامنة في سورية والذي يرقى إلى حوالي نصف مليون سنة، فقد أمدنا بلغة تشي بحصول تطورات مهمة في طرق تصنيع الأدوات الحجرية كما تنوع شكل الفؤوس المصنّعة.

ولكن الشيء المهم هنا هو العثور في هذا الموقع على أول دليل عمراني / خارج أفريقيا / يوثق على أنه أول معسكر سكني سليم يعثر عليه ويعود لنصف مليون سنة.

حيث أصبحنا هنا أمام وجود لأرضيات سكن أصيلة، أما الأكواخ فقد صنعت من الجلود الحيوانية والأغصان والأعشاب كما لوحظ أنها سندت بالحجارة.

وقد قدم هذا الموقع أدواته الحجرية المتطورة عما سلف من مواقع، كالفؤوس اليدوية والمعاول والمقاحف والسواطير.

ولعل ما تجدر الإشارة إليه هنا، هو العثور في هذا الموقع على دلائل هي الأولى حول استخدام النار في المشرق حتى الآن.

ويشير الدكتور " سلطان محيسن " إلى أن لغة المجتمعات المنتصبة ليست معروفة و" لكننا نخمن وجود تقارب شديد بين لغات أو لهجات سكان بلاد الشام آنذاك لأنهم لم يكونوا معزولين عن بعضهم البعض بشكل كامل وإنما قامت بينهم صلات وعلاقات حضارية متنوعة " (4).

وفي الفترة بين /100.000-250.000 /سنة سيلاحظ ازدياد في عدد سكان بلاد الشام وزيادة المواقع المستوطنة بحيث انتشرت المجتمعات المنتصبة إلى مناطق البادية والفرات وإلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت في فلسطين.

وكدلالة أثرية على وجود تجانس حضاري مبكر يعود لتلك الفترة فقد قدمت الكشوفات الأثرية لقى آثارية هي عبارة عن فؤوس على شكل لوزة أو قلب بحيث تجلى ذلك في أغلب مواقع المشرق تلك الفترة ما يعطي دلالة على ظهور تقليد حضاري واحد في أغلب مجتمعات بلاد الشام.

وأهم مواقع هذه الفترة هي موقع القرماشي على حوض نهر العاصي الأوسط. وموقع مغارة الطابون وهولون ومعان وباروخ في فلسطين. وفي الأردن موقع عين الأسد وموقع منطقة الأزرق، وفي لبنان موقع رأس بيروت.

ومع أواخر هذه الفترة التي يمكن تحديدها بين/150.000 -80.000/ سنة مرت مجتمعات المشرق المنتصبة بفترة انتقالية شهدت تغيرات حضارية مهمة وربما عرقية شملت بلاد الشام كافة. والملاحظ في هذه الفترة هو ميل المجتمعات للارتباط بالأرض، دلّ على ذلك تراكم السويات الآثارية ومعطياتها في نفس الموقع وفوق بعضها البعض وبعشرات الأمتار.

مجتمعات النياندرتال المشرقية 100.000-40.000 سنة:

في هذه الفترة ظهر وعي ظاهرة الموت لأول مرة في التاريخ البشري، وأخذت مناحي الحياة كافة بالتطور والذي تبدى أن مواقع المشرق في هذه الفترة شهدت تفاعلاً اجتماعياً أكبر مما قبل.

ومن أهم مواقع هذه الفترة: موقع الديدرية قرب حلب، موقع كهف الدوارة وجرف العجلة وأم التلال وأم قبيسة وبئر الهمل ومغاور جبل سمعان. هذا في سورية، أما في فلسطين فنجد مغارة الطابون والعامود والسخول وجبل قفزة. وفي لبنان موقع العصفورية وفي الرافدين موقع شانيدار.

مجتمعات الإنسان العاقل في المشرق العربي 35000-12000سنة:

مع هذا الإنسان أصبحنا أمام جدنا المباشر، صانع الحضارة المتواصلة إلى الآن.

والذي يبدو أنه مع هذه الفترة بدأت بالظهور بوادر تخصص حضاري محلي، بحيث نشهد ممارسة للفنون الأولى وتحقيق المجتمعات خطوات كبيرة في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والفنية دلت على خصوصية حضارية ارتبطت بمناطق جغرافية محددة.

ومن أهم مواقع هذه الفترة: موقع يبرود/ الملجأ الثاني / – منطقة الكوم وتدمر في سورية.

وفي فلسطين: موقع مغارة الواد – مغارة الأميرة.

وفي لبنان: موقع كسار عقيل. (5)

والذي يبدو أن المناخ لعب دوراً سلبياً في حياة المجتمعات العاقلة لهذه الفترة، فلم تشهد هذه المجتمعات تطورات كبيرة بل نسبية، بانتظار أن يعم الدفء من جديد مع الفترة التي تليها، عنيتُ – فترة الثقافة النطوفية التي شكلت منعطفاً حضارياً حاسماً لنشوء الزراعة وتدجين الحيوان وما استتبع ذلك من توطد الاستقرار وتطور في الحياة بوجوهها المختلفة.

الثقافة النطوفية في المشرق العربي 10000ق.م – 8000ق.م:

أكدت المكتشفات والأبحاث الآثارية على وجود ترابط حضاري متين لمجتمعات المشرق العائدة لهذه الفترة والتي سميت بذلك نسبة لموقع وادي النطوف في فلسطين.

ويشير الباحث الفرنسي (كوفان) إلى عمق وتواصل حضاري امتد من وادي النيل في الغرب وحتى الفرات في الشرق. (6)

ويلاحظ مع بداية هذه الفترة غياب الحضارات ذات الانتشار العالمي الواسع وبدء ظهور حضارات محلية في أصلها وتطورها ارتبطت بجغرافية محددة واكتسبت طابعاً حضارياً مميزاً.

والذي يبدو أن سياق التفاعل الاجتماعي منذ الفترة السابقة مضافاً إليه تفاعل البيئة الاجتماعية مع البيئة الطبيعية والوسط المحيط أديا إلى بروز هذه الخصائص المجتمعية الحضارية لمجتمعات المشرق العربي النطوفية.

يشير الدكتور" سلطان محيسن " إلى أن الثقافة النطوفية في بلاد الشام هي الشاهد الأفضل على بواكير الوحدة الحضارية حيث يستند على مقولة جاك كوفان من أن النطوفيين انتشروا على مساحة واسعة من وادي النيل في الغرب وحتى وادي الأردن ووادي الفرات في الشرق.

وهذا ما أكدت عليه مكتشفات أثرية لمواقع حلوان في مصر والمريبط والبيضا وأريحا في بلاد الشام.(7)

ويبدو أنه وباطراد مع الزمن سنلاحظ أن الجامع الحضاري المشترك أخذ بالتبلور وهذا ما تبدى جلياً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وبشكل خاص كان أكثر وضوحاً في المجالات الروحية والدينية والفنية.

ويلاحظ أن ثمة انتشاراً لمعطيات فنية متشابهة على مدى مواقع المشرق النطوفية وهذا ما قدمته مواقع عين ملاحة وأم الزويتينة ووادي فلاح ومغارة الواد في فلسطين.

كما أن بناء البيوت الدائرية وتصنيع الأدوات الحجرية الصغيرة إلى ما هنالك والذي شمل مختلف مواقع المشرق وصولاً إلى وادي النيل يعطي دلالة على ظهور وحدة متجانسة حضارياً آخذة بالتبلور باطراد مع الزمن.

إن المنعطف الحضاري الحاصل في هذه الفترة والذي تجلى في بواكير الزراعة وتدجين الحيوان سوف يسهم في تكريس معالم الاستقرار في الفترات اللاحقة حيث أننا الآن أمام ظهور مبكر للزراعة امتد من سيناء وحتى سهول عربستان ومن سفوح جبال طوروس وزاغروس وسهول الجزيرة الشامية وحتى وادي الأردن(8). وهذا ما تبلور مع نهاية الألف التاسع ق.م.

وتؤكد هذه المعطيات مكتشفات مواقع الكبارا ووادي النطوف ومغارة شقبة في فلسطين وفي الرافدين موقع شانيدار وزاوي جيمي.

وبحلول الألف العاشر انتشرت الثقافة النطوفية من سواحل المتوسط الجنوبية وحتى كيليكيا في شمال سورية مروراً بالبادية السورية وحوض الكوم والفرات وجنوباً نحو منطقة الأزرق في الأردن. حتى صار بإمكاننا القول أن التقاليد الزراعية المبكرة الواحدة عمت كامل مناطق المشرق آنذاك.

من مواقع جيرود ويبرود والكوم حمر وعفرين في سورية مروراً بمواقع فلسطين كموقع الخيام ووادي الفلاح. ومواقع جعيتا وملجأ برجي في لبنان. وفي الأردن موقع البتراء وخزنة. بالإضافة إلى موقع زرزي وشانيدار وزاوي جيمي في العراق.

النطوفي السوري يؤكد الوحدة الحضارية لبلاد الشام والمشرق:

نتيجة الكشوفات النشيطة حول الثقافة النطوفية في فلسطين وقيام هذه الكشوفات بوقت مبكر.. حاولت الدوائر الآثارية التي تلعب في الظلام أن تكرس بأن الثقافية النطوفية هي حضارة فلسطينية بحتة ولا رابط لها مع الثقافة النطوفية في بلاد الشام وتحديداً سورية. في محاولة لتجزيء الوحدة الحضارية والتاريخية لبلاد الشام منذ ذلك الوقت المبكر.

ولا تخفى هنا الخلفية السياسية والعنصرية في هذا الطرح، وهو ما يرتبط بواقع " إسرائيل " السياسي الحالي.

لكن الكشوفات السورية النطوفية الحديثة أكدت أن المواقع النطوفية السورية بكل معطياتها قدمت الدليل على وجود ثقافة نطوفية واحدة في بلاد الشام وذلك في أوجه الحياة العمرانية والفنية والدفنية وأدوات الزراعة.

ولعل أهم مواقع النطوفي السوري جاءت من النبك ووادي فليطة والبادية السورية وحوض الفرات(نهر الحمر)، ومنطقة درعا(الطيبة) وعفرين وجيرود.

وكان لما قدمه موقع المريبط على حوض الفرات وموقع أو هريرة المنعطف الحاسم في تكريس أن الثقافة النطوفية في بلاد الشام هي ثقافة تستند على وحدة حضارية واحدة تشمل كل المواقع النطوفية.

وقد بدأت الأبحاث الرصينة تؤكد على أن النطوفي السوري الذي تجلى في المريبط يُشكل النصف الآخر للنطوفي الفلسطيني في موقع الملاحة بكل ابتكاراته وإبداعاته.

يقول الدكتور محيسن: " إن الأبحاث الجارية أكدت وجود حضارة نطوفية جسدت وحدة حضارية هي الأقوى من نوعها بين مختلف أرجاء

المشرق العربي القديم وامتدت بلون واحد وبسحنات محلية من النيل إلى الفرات ومنذ الألف العاشر قبل الميلاد ".

الجدير ذكره أن الثقافة النطوفية المشرقية ساهمت في إنشاء الأساس المادي والفكري المباشر للانعطاف التاريخي والأهم في تاريخ البشرية الذي تجلى في الانتقال من الصيد والالتقاط إلى الزراعة والتدجين. وهنا مسار حضاري جديد ينبعث من قبل المشرق العربي. " (سلطان محيسن 1994)

والشيء المهم في هذه الفترة والذي يدحض مزاعم الدوائر الاستشراقية والإسرائيلية هو أن الأبحاث العلمية الرصينة أكدت أن ثمة تجانساً حضارياً امتد من وادي النيل وحتى حوض الفرات، حيث تشير تلك الأبحاث إلى سيادة نوع عرقي واحد يعرف بالعرق المتوسطي القديم.(9)

وطالما أن اتجاه بحثنا يركز على الجزء الجنوبي الغربي من المشرق العربي، فلا بد لنا أن نستعرض منجزاً مهماً يؤرخ في حدود الألف الثامن قبل الميلاد.

فقد تم الكشف عن مدينة تعود إلى هذه الفترة تشكّل إلى الآن أول مدينة في التاريخ، عنيت مدينة أريحا في فلسطين. حيث عثر على موقع عمراني ضخم متقدم نسبة إلى عصره وهذا ما أعطى دلالة على وجود سلطة إدارية واجتماعية مقتدرة.

الموقع عبارة عن قلعة محاطة بسور طوله /8/ أمتار وعرضه /3/ أمتار وارتفاعه /8.5/ متراً. ويستند إلى هذا السور الحجري، برج حجري عرض قاعدته /10/ أمتار وارتفاعه /8.5/ متراً. *

ولوحظ وجود خندق حول القلعة بعرض ثمانية أمتار وعمق حوالي مترين ونصف.

وقد أكدت الدراسات أن سكان هذا الموقع مارسوا الزراعة وقاموا بتجارة الملح الذي تم استخراجه من البحر الميت كما أنهم استخرجوا الكبريت من وادي الأردن.

وتبدى في بعض أماكن هذا الموقع وجود استيطان بشري متواصل على مدى 22 سنة متتالية (10). ومع نهاية الألف التاسع قبل الميلاد دخل المشرق العربي في عصر الزراعة والتي ستخلق جملة من القيم الجديدة والمعايير والرموز في كافة أوجه الحياة مما يضفي الاستقرار على المجتمعات آنذاك ويزيد من خبرتها في التفاعل مع الطبيعة باتجاه السيطرة عليها وما يستتبع ذلك من ظهور بواكير التجارة والتبادل التجاري عبر تبادل السلع والخبرات.

ومن أهم مواقع هذه الفترة: المريبط – موقع الشيخ حسن – الجرف الأحمر – تل أسود في سورية.

وفي فلسطين: موقع جلجال في وادي الأردن، موقع أبو سالم في النقب ووادي فلاح على الساحل ومستوطنة أريحا شمال البحر الميت.

*** يشير الباحث بورهارد برنيتس إلى أن عدد سكان هذا الموقع يقدر بـ 3000 نسمة إلى 2000 نسمة ودلت التنقيبات الأثرية على انتشار عبادة الأجداد لدى سكان هذا الموقع عبر العثور على جماجم ذات وضعيات طقوسية – شعائرية.**
انظر – بورهارد برينتس في قائمة المراجع.

وتؤكد الدراسات أن التشابه العام بين سورية وفلسطين بقي سائداً في مجال الزراعة الشاملة والتدجين لاسيما الماعز والغنم بخاصة وكذلك البناء،

حيث نجد مخطط البيوت المستطيلة ذات الطابقين. كما أن التشابه تبدى في الأدوات الحجرية والمعتقدات حيث أننا هنا أمام حالة اعتبارية للأم بالإضافة إلى حالة اعتبارية للثور كما أنه ظهرت في هذه الفترة عقيدة جديدة تضمنت تقديس الأجداد / الأرواحية /.

حيث كانت الجماجم تُخرج من القبور وتوضع في أرضيات البيوت وعلى قواعد صلبة.(11) ومع حوالي/ 7600–6000 / ق.م سنلاحظ أن المواقع المشرية ولا سيما في الجناح الغربي الشامي أمدتنا بظاهرة الجماجم المقولبة، حيث كانت الجماجم تُكسى بالجص وتُصبغ بلون فاتح يماهي بشرة الإنسان وتنزّل محاجر العيون بالصدف أو القواقع وترسم خطوط بنية على الرأس ما يوحي بشعر الإنسان.

وقد أبانت مواقع أريحا وبيسامون وتل الرماد عن وجود هذه النماذج ما يعطي انطباعاً مهماً على وجود وحدة روحية متينة وتواصل بين مواقع المشرق العربي آنذاك.

يقول د.محيسن: منذ منتصف الألف السابع تجسدت وتجذرت دلائل الوحدة الحضارية في مختلف مناطق بلاد الشام. ويعبّر موقع العمق في سورية (الإسكندرون) عن هذه المرحلة كما موقع جبيل شمال بيروت.

وكذلك موقع بيسامون في حوض نهر الأردن والذي يحمل صفات مشرقية.

أما في الرافدين فلم تكن المواقع الرافدية بمعزل عن التيارات الحضارية الهامة التي سادت بلاد الشام حيث يعبّر موقع أم الدباغية بكشوفاته عن تشابه مع كشوفات الثقافة اليرموكية ما يشي بوجود علاقات قوية بين الرافدين وبلاد الشام.(12)

ومع دخول المشرق العربي في رحاب الألف الخامس والرابع قبل الميلاد / العصر الحجري النحاسي/ يلاحظ أن مواقع هذه الفترة وعلى مدى المشرق كانت ذات تجانس حضاري كبير وتشابه واضح وهذا ما يُعبّر عنه موقع تل حلف في شمال سورية الذي امتدت تأثيراته الثقافية من شمال وشرق بلاد الرافدين وحتى سواحل البحر المتوسط ومن مناطق الأناضول شمالاً وحتى منطقة البقاع جنوباً (13).

وقد وصلت تأثيرات هذه الثقافة إلى لبنان والأردن وفلسطين بل وحتى إلى الخليج العربي.

ثم ومع مطلع الألف الخامس انتقل الثقل الحضاري إلى الجنوب الرافدي في تل العبيد وأطلق على هذه الثقافة اسم العبيدية التي انتهت في منتصف الألف الرابع.

ويلاحظ أنه مع هذه الثقافة ظهر التجانس الحضاري للمشرق العربي القديم واضحاً أكثر من أي وقت مضى.

وتشير الدراسات إلى أن هذا التجانس قد تجذر وتبلور على كافة الصعد الاقتصادية والروحية. بحيث امتدت تأثيراتهم في فترتهم الأخيرة من عربستان شرقاً وحتى شمال سوريا وسواحل المتوسط غرباً. ومن الأناضول شمالاً وحتى الخليج العربي جنوباً (14) .

وبانتهاء فاعلية الثقافة العبيدية أصبحت حضارة المشرق العربي أمام عصر جديد تجلى في ظهور منجزين مهمين: الأول تجلى في الثورة العمرانية ونشوء المدن.

والثاني تجلى في اختراع الكتابة الذي أدى إلى وضع البشرية على سكة التطور الحقيقي وذلك مع نهاية الألف الرابع. فمع منتصف الألف

الرابع قبل الميلاد سادت في الجزء الجنوبي من المشرق ولا سيما جنوب سوريا وفلسطين الثقافة الفسولية / نسبة إلى موقع تليلات الفسول شرق البحر الميت/.

أما في العراق والجزيرة السورية فقد ظهرت ثقافة أوروك وتجلت في مدن أوروك وعارودة وحبوبة الكبيرة.

وفي هذا العصر عُرفت الأختام الاسطوانية واستخدمت. وتشير المعطيات الأثرية المكتشفة إلى وجود تقاسيم عرقية لسكان المشرق مما يؤكد وحدتهم العرقية على امتداد مساحات واسعة من المشرق العربي القديم دلّ على ذلك التماثيل التي عثر عليها في مواقع مختلفة من العراق وسورية (15).

الجدير ذكره هنا هو ظهور منجز الكتابة عبر الكتابة التصويرية التي سرعان ما ستتطور في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد إلى كتابات مسمارية مقطعية ومن ثم سوف ننتظر إلى منتصف الألف الثاني لنكون أمام ظهور الأبجدية.

ولعل ظهور منجز الكتابة في أولياته في مواقع رافدية وشامية عبر الكتابات التصويرية يدل بشكل واضح على وحدة في دورة الحياة الاقتصادية الاجتماعية الروحية للمشرق العربي القديم. بالإضافة إلى ظهور المدن الأولى أيضاً.

استنتاجات حول نشوء حضارة المشرق العربي – العصور الحجرية:

أولاً **: لاحظنا أن ثمة تواصلاً حضارياً على مدى المشرق العربي، وأن المناخ والبيئة لعبا دوراً هاماً في حركة الاجتماع والإشغال البشري.**

ثانياً **: أن مواقع مجتمعات ثقافة الإنسان المنتصب: من مليون سنة وحتى 100000 سنة: أوحت بوجود تقارب شديد بين لغات أو لهجات سكان بلاد الشام، حيث أنهم لم يكونوا معزولين عن بعضهم البعض وإنما قامت بينهم صلات وعلاقات حضارية متنوعة.**

ثالثاً **: الذي يلاحظ عبر مسار حركة التاريخ آنذاك، أنه كلما تقّدم الزمن كلما تقاربت المجتمعات أكثر، ودليل ذلك أنه في الفترة بين / 250.000 وحتى 100.000 /سنة سنلاحظ ظهور تقليد حضاري شمل كافة مجتمعات بلاد الشام، عنيتُ، تلك اللقى الآثارية التي هي عبارة عن فؤوس على شكل لوزة أو قلب. ما يشي باقتراب المجتمعات من بعضها ونشوء تقاليد متجانسة فيما بينها تعبّر عن وحدتها الاجتماعية الآخذة في التجانس والتمازج الإيجابي.**

رابعاً **: أنه في الفترة بين /150.000 – 80.000 /سنة:**

شهدت بلاد الشام تغيرات حضارية مهمة ويعتقد الباحثون أنها عرقية شملت كافة المواقع وأن بعض المواقع شهد استيطاناً لسويات عديدة ما يعني أن ثمة التصاقاً بالأرض وارتباط بها أكثر مما قبل.

خامساً **: مع ثقافة المجتمعات العاقلة اعتباراً من 40.000 سنة: بتنا أمام ظهور بداءات لتخصص محلي حضاري وصار بإمكاننا التحدث عن الخصوصية الحضارية المرتبطة بمناطق جغرافية محددة. وهذا ما تكرس حسب الكشوف والأبحاث الأثرية حيث أشار الباحث "جاك كوفان " إلى عمق**

وتواصل حضاري تبدى في الثقافة النطوفية 10000 ق.م وشمل منطقة امتدت من وادي النيل في الغرب حتى نهر الفرات في الشرق.

كما أن الحياة الذهنية التي عبّرت عن نفسها في تطور مفاهيم الحالات الاعتبارية للأم وكذلك في اعتبار للثور ثم في ظاهرة الأرواحية تؤكد على وحدة حضارية متجانسة بين كافة مواقع المشرق العربي القديم ومنذ تلك الحقبة.

***سادساً*: أن جملة التطورات وتراكم المنجز الحضاري على مدى مليون عام في المشرق أدى إلى تفاعل إيجابي تجلى في منحيين:**

المنحى الأول: تفاعل بين مكونات البيئة الاجتماعية عبر التجوال والترحال ثم الاستيطان بحيث خلق هذا الأمر تفاعلات لجهة الاجتماع البشري مما شكّل خاصية أساسية من خصائص الاجتماع البشري، عنيت، التفاعل الاجتماعي والديمغرافي.

المنحى الثاني: تفاعل بين البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية والمحيط الحيوي ما أدى إلى تطور هائل في حياة البشر واستقرارها وفهمها لنواميس الطبيعة وحركتها.

وعبر هذين الرائزين بدأ المشرق العربي في صياغة الأرضية والبنية الحضارية للاجتماع البشري عبر منجز الزراعة وتدجين الحيوان ثم في نشوء المدن الأولى مع العصور التاريخية وظهور منجز الكتابة الذي سيسرع من الانعطاف الحضاري للبشرية. كل هذا متوافقاً مع جملة المعطيات الذهنية والفكرية والعمرانية والاعتقادية والفنية والتي ستوثق مع ظهور الكتابة.

ولعل هذا الخط الحضاري الذي انطلق منذ مليون سنة عبر العصور اللاحقة هو ما أدى إلى النظر لمنطقة المشرق العربي كبؤرة إبداع في مساق الحضارة الإنسانية.

مع ملاحظة أنه إلى الآن لم تكن ثمة إشكالية تعنى بدخول جماعات جديدة أدت إلى حرف حركة التاريخ المشرقي عن إبداعها، إلا ما تبدى حديثاً من محاولات الدوائر الإسرائيلية الأثرية من جعل النطوفي الفلسطيني قائماً بذاته ولذاته ومنفصلاً عن مساره الحضاري التاريخي الاجتماعي في المشرق العربي.

بيد أن الحقائق العلمية أفرزت حسمها لجهة وجود نطوفي مشرقي واحد ما يعبّر عن خط حضاري واحد لمجتمع واحد في مواقع عديدة وكثيرة على مدى المشرق العربي.

ولعل الدخول نحو عالم العصور التاريخية سوف يكشف اللثام أكثر عن هذه الإشكالية خصوصاً وأننا أمام عالم وثائقي، كتابي يفرض نفسه وحقائقه على كل الأوهام والاختلاقات والمبالغات.

ثبت المراجع والهوامش:

2- بشار خليف- دراسات في حضارة المشرق العربي القديم- مركز الإنماء الحضاري – حلب – سورية2003.

3- سلطان محيسن- الصيادون الأوائل – دار الأبجدية – دمشق1989.

4- المرجع السابق.

5- المرجع السابق.

6- جان كوفان – الألوهية والزراعة – ت: موسى ديب الخوري – وزارة الثقافة – سورية1999.

7- سلطان محيسن: كتاب الوحدة الحضارية للوطن العربي – وزارة الثقافة – سورية2000.

8- سلطان محيسن – المزارعون الأوائل – دار الأبجدية – دمشق1994.

9- HOUHS,COPELAND, AURENCHE,1973

.LES INDUSTIRES PA LEoLITIQUE DU PROCHE-ORIENT

10- بورهارد برينتس – نشوء الحضارات القديمة – دار الأبجدية – دمشق1989. ت: جبرائيل كباس.

11- سلطان محيسن: المزارعون الأوائل – مرجع سابق.

12- سلطان محيسن – المرجع السابق.

13- سلطان محيسن – الوحدة الحضارية – مرجع سابق.

14- سلطان محيسن – المزارعون الأوائل – مرجع سابق.

الفصل الثاني

العصور التاريخية في المشرق العربي من 3100 ق.م وحتى 1250 ق.م (زمن طروء العبرانيين):

استناداً على جملة ما سبق نجد أننا أمام انعطافات حضارية ستتجلى في العصور التاريخية:

***أولها*: إن ما قدمه منجز الزراعة أدى إلى تمكين المجتمعات في أرضها وزيادة ازدهارها ما يعني توسعاً في القرى الزراعية وتشابك في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والحياتية ما سيؤدي إلى نشوء المدن الأولى في التاريخ الإنساني وهذا ما حصل في المشرق في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد.**

***ثانيها*: أن عالم التجارة والمبادلات التجارية خرج من عالم الزراعة والاقتصاد الزراعي ما أدى وباطراد إلى تمكين في العلاقات الحياتية وزيادة الخبرات بين المجتمعات آنذاك. ومعلوم أن التفاعل الاجتماعي هو أساس تطور الحضارة الإنسانية.**

***ثالثها*: أن عالم الزراعة والاقتصاد الزراعي ثم التجارة والتبادل التجاري سوف يفسح المجال لنشوء منجز جديد يتجلّى في الحساب والعدّ الذي أدى بدوره إلى بواكير نشوء الكتابة.**

***رابعها*: أن عالم الزراعة ساهم وبقوة في نشوء السلطة في التاريخ ولعل هذا يتبدى واضحاً في مجال الزراعات المروية وتقنياتها والري الصناعي والسدود ما يحتم نشوء سلطة قادرة ومقتدرة لتنظيم هذا العالم الجديد بما يؤدي إلى تمكين المجتمعات الإنسانية من إدارة أمورها بشكل يتناسب مع طموحاتها.**

وفي هذا المجال يقول" بورهارد برينتس ":

" إن التطور الذي أدى إلى الثورة العمرانية ونشوء المدن الأولى لم يكن ليحصل إلا نتيجة للزراعة وتطورها وتقسيم العمل في الحرفة والزراعة وظهور التجارة. وإن النمو الكبير لمردود العمل / حيث أنه في الزراعة ازداد الإنتاج خمسة أضعاف عما كان عليه في مرحلة الصيد / أدى إلى زيادة سريعة في عدد السكان، ما أدى إلى ظهور المدن الكبرى وبروز أشكال جديدة في حياة المجتمع.(1)

خامسها: أن عالم الزراعة ونتيجة خلقه لمعالم الاستقرار الدائم خلق إيقاعاً اجتماعياً واحداً تبعاً لإيقاع الطبيعة ما انعكس في الذهنية المجتمعية وعبّر عن نفسه بظهور الأساطير الشفوية الخصيبة وأناشيدها وعوالمها الرمزية الاعتقادية والتي وثقت في العصور التاريخية عند المجتمعات كافة من سومرية وأكادية وكنعانية وعمورية وآرامية.

وهذا شأن مهم جداً لأن قيم ومعايير ورموز الثقافة الزراعية لا سيما الكنعانية ذُكرت في التوراة بمعنى أنها ستكون حاضرة في العقل الكهنوتي التوراتي البعيد عن ذهنية المشرق.

سادسها: لعبت الفترة الممتدة بين نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ونهاية الألف الثالث دوراً مهماً وخاصاً في تاريخ البشرية، حيث أننا أمام ظهور سلطة الدولة التي هي نتاج المجتمع وتطوره.(2)

وعلى كل هذا يمكننا تتبع حركة تطور التاريخ المشرقي مع منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

المشرق العربي – اعتباراً من 3500 ق.م:

مع حلول حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد بتنا أمام تعبير للمجتمعات المشرقية عن تطورها، بحيث أضحت مجتمعات مركبة ذات

علاقات حياتية متداخلة ومعقدة فرضت وجود سلطات إدارية واجتماعية ومعتقدية كي تنظم أمورها ومجريات حياتها من الأوجه كافة.

بحيث نلاحظ في الجناح الرافدي للمشرق نشوء مدينة أوروك وأريدو وتبة غورا، في حين نجد الجناح الشامي يشتمل على مواقع لمدينة حبوبة الكبيرة وعارودة وقناص وتل براك. أما في فلسطين والأردن فنجد مواقع: بيسان وتل المتسلم والعفولة وتل أبو زريق وتل الأساور وخربة الكرك وتل أم حماد الشرقي وتلول أبو العلايق وتل السلطان وباب الذراع وتل الفارعة الشمالي ويازور وتل الدوير، وفي لبنان جبيل .

إن الأبحاث والدراسات الأركيولوجية أكدت تشابه النمط المعماري لمعابد المواقع الرافدية والشامية، كما أن ظهور منجز الكتابة تم بالتزامن بين المواقع الآنفة الذكر / أوروك – حبوبة الكبيرة – عارودة /.

أما الواقع الديمغرافي آنذاك فتدل الأبحاث على سيادة الأرومة السومرية وثقافتها بالإضافة إلى تواجد أكادي ولو أنه أقل تأثيراً. غير أن الباحث المدقق يلاحظ أن الثقافة السومرية في سياق حضارة المشرق كانت استمراراً للثقافة العبيدية / 4500–3500 / ق.م وقد دلت البحوث على أن الكتابة واللغة السومرية احتوت على الكثير من الكلمات المقتبسة عما قبلها، بالإضافة إلى أن الكثير من أسماء الآلهة السومرية مأخوذة من لغات الشعوب التي سكنت الرافدين قبل السومريين.

ومع مطلع الألف الثالث ق.م فإننا سنجد أنفسنا أمام مدن ضخمة ومسورة على مدى المشرق العربي، حيث نجد مدن كيش ونيبور وتل فارا وأبو صلابيخ في الرافدين وفي الشام: تل العشارة / ترقا / تل ليلان– تل

براك. وفي الأردن: باب الضهرة وفي فلسطين مجيدو وخربة الكرك وتل الفرح بالإضافة إلى جبيل في لبنان.

ومعظم تلك المدن كانت عبارة عن دويلات مدن وكانت مدينة ماري في تل الحريري، على الفرات الأوسط تتأهب لإعلان ولادتها وفق مشروع مسبق للإنشاء كما حال مدن مشرقية كثيرة مثل حبوبة الكبيرة وتل الخويرة وإبلا.

وباطراد مع الزمن سوف تنشأ مدن جديدة مع المضي في الألف الثالث ق.م حيث نجد ظهور مدينة أور ولاغاش وأوما وشوروباك وأدب في الرافدين، وفي الجناح الغربي ستظهر مدينة ماري وتل الخويرة مع وجود لم يكتمل بعد لإبلا وأوغاريت. والذي يبدو أنه منذ الثلث الأول للألف الثالث ولا سيما مع / 2600/ق.م، سنجد أن السلالات الحاكمة في هذه المدن كانت سومرية ما عدا كيش الرافدية وماري السورية حيث حكمتها سلالات أكادية(3).

وأهم ما يميز هذه الفترة لجهة بحثنا هو ظهور فخار من النوع المعروف بفخار خربة الكرك نسبة إلى الموقع الكائن بالقرب من بحيرة طبرية حيث أمكن التعرف لأول مرة على هذا النوع حيث تبين أنه انتشر واسعاً في عدد كبير من مواقع بلاد الشام. وتبين الدراسات أن هذا النوع من الفخار انبثق في هذا الموقع عبر طرق التجارة الآتية من بلاد الشام سواء في سهل العمق (الإسكندرون) أو من حماه على نهر العاصي(4).

مما يعطي دلالة على عمق الصلات بين المواقع المشرقية آنذاك.

ويشير الباحث " أبو عساف " إلى أن العلاقات بين مدن المشرق في الفترة بين/2800–2350/ق.م كانت وطيدة فيما يلاحظ أحد الباحثين

الغربيين أن المبادلات الثقافية في الألف الثالث قبل الميلاد بين مدن المشرق العربي كانت أغزر وأقوى مما كان من الممكن تصوره حتى الآن.

مع الأخذ بعين الاعتبار أنه ومنذ الثلث الأول للألف الثالث نلاحظ أن الفاعلية العمورية آخذة بالتصاعد التدريجي حيث أنها ومع حلول الألف الثاني ق.م سوف تستطيع تأسيس ممالك عمورية كنعانية على مدى الشرق العربي.

ولعل دراسة حركة الاجتماع البشري آنذاك تدل بشكل قاطع على أن خاصية التمازج والتفاعل الاجتماعي والديمغرافي كانت في أوجها وتعبر بشكل عفوي وطبيعي نحو إعطاء الشخصية المشرقية خصائصها المجتمعية.

ومع منتصف الألف الثالث سوف نلاحظ أن منعطفاً في حركة التاريخ في المشرق يأخذ اتساعه عبر وجود وعي مديني فقط وبغياب أي وعي اتحادي بين المدن المشرقية. كما أن توسع مصالح المدن وطبيعة البيئة المعتمدة على الري والأقنية حتم حصول صراعات حدودية بين المدن آنذاك ولا سيما مدن الرافدين وعلى هذا سنجد أن مدن الرافدين عانت من الصراعات فيما بينها وكانت أغلب هذه الصراعات صراعات مصلحية حاول أن يحسمها(لوجال زاجيزي)حاكم مدينة أورا الرافدية بحيث وصل بقواته إلى ساحل المتوسط مع منتصف الألف الثالث ق.م.

ثم ومع/ 2340 /ق.م سوف تعبّر الفاعلية الأكادية عن نفسها في ظهور (شاروكين الأكادي) ابن مدينة كيش الأكادية والذي استطاع أن يرث امبراطورية زاجيزي بالقوة ويحاول أن يسيطر على كامل المشرق العربي آنذاك.

الجدير بالذكر هنا، هو أن معظم بل جلّ هذه الصراعات لم تكن صراعات إثنية على قاعدة سومري – أكادي بل كانت صراعات مصلحية بالدرجة الأولى وهذا موثق في أن لوجال زاجيزي هو أكادي* يحكم مدينة سومرية ومن قضى عليه كان أكادياً هو شاروكين الذي استطاع معبّراً عن الفاعلية الأكادية المتصاعدة من أن يشكل استمرارية حضارية للمشرق بروح جديدة وعقلية جديدة مستندة على ما سبق.

ولعل هذه الفاعلية الأكادية أدت إلى اصطباغ المشرق العربي برمته بالطابع الحضاري والثقافي الأكادي. والذي استمر حتى الألف الثاني والأول قبل الميلاد وبقيت تأثيراته حتى أيامنا هذه والمنحى اللغوي يمكن أن يوثق ذلك (5).

يقول الدكتور" فيصل عبد الله ":

" إن الطابع الحضاري الأكادي الذي تلون بألوان مدن ذلك العصر وعلى رأسها حلب وبابل وماري وجبيل ما يزال قائماً وسائداً حتى يومنا هذا وسيبقى لأنه عميق الجذور ومتين الأصول.(6)

وانتهت الفاعلية الأكادية في حوالي 2160 ق.م على يد الغوتيين القادمين من جبال إيران.

*** لعل اسم الملك لوغال/ لوجال زاجيزي يعطي انطباعاً على أنه سومري، لكن الوثائق المسمارية تشير إلى أن اسم أبيه بوبو BUBU وهو اسم أكادي بما يعني أن اسم الملك زاجيزي سومري غير أنه أكادي الهوية.**

وربما هذا يعطي دلالة على مبلغ التمازج والتفاعل السومري – الأكادي.

انظر– عيد مرعي – تاريخ الرافدين – دار الأبجدية – دمشق 1991 ص 38.

وأهم ما يمكن رصده من نتائج صعود نجم الفاعلية الأكادية هو:

انتشار اللغة الأكادية وكتابتها على مدى المشرق العربي بحيث أن اللغة الأكادية أصبحت لغة عالمية في الألف الثاني قبل الميلاد وكتب الملوك بها مراسلاتهم.

واستمرت هذه اللغة حتى انتشار اللغة الآرامية في القرن الخامس قبل الميلاد.

الجدير ذكره هو أن الفترة الممتدة بين /2300–2000 /ق.م في فلسطين والأردن أعطت دلائل كثيرة على وجود مدافن غزيرة لكنه في المقابل لم يعثر على مواقع سكنية تتناسب مع غزارة المدافن. وغالباً ما عثر على مواقع سكنية هي عبارة عن قرى زراعية صغيرة أو معسكرات(7).

ويبدو أن هذه الفترة من أواخر الألف الثالث كانت تشهد تحولاً جذرياً في النواحي السياسية والدينية والمعمارية والتجارية ليس في فلسطين فقط وإنما في أنحاء مختلفة من المشرق العربي.

إن هذا يعبر عن انزياح جماعات قبلية جديدة إلى المشرق ربما يشكل العموريون أساسها وهم الذين سوف تتبلور فاعليتهم الديمغرافية والسياسية مع مطالع الألف الثاني قبل الميلاد حيث سنشهد انتهاء الفاعلية السومرية المتأخرة في أور الرافدية نتيجة الهجوم العيلامي أولاً وبنتيجة بدء تبلور الوجود العموري في الرافدين ما أدى إلى انتهاء فاعلية أور في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ونتيجة لذلك لم يعد ثمة دولة قوية في المشرق العربي بحلول /2008 /ق.م وهذا ما أدى إلى تمكن السلالات العمورية الكنعانية

من انتشار مدنها أو السيطرة على الحدود القائمة في المشرق العربي اعتباراً من مطالع الألف الثاني قبل الميلاد .

مع ملاحظة أن مدينة أور قد انتهت فاعليتها في هذه الفترة، لذا فمن غير المعقول أنه بعد مئة سنة من هذا الزمن سينطلق ابراهيم الخليل منها حسب المرويات التوراتية لينطلق نحو " أرض الميعاد ".

وهذا ما سنبحثه في الفصول اللاحقة.

المشرق العربي في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد:

شهد المشرق العربي في هذه الفترة نشوء ممالك دول عمورية كنعانية وذلك في بابل وآشور وماري وكركميش ويمحاض وقطنة وجبيل ودان وحاصور ومجدو وإسين ولارسا وإشنونا وإبلا.

ويلاحظ في هذه الفترة أن مدن فلسطين نشطت من جديد وانتشرت حيث أصبحت جزءاً من النسيج الحضاري المشرقي وتفاعلاته، حيث أشارت الوثائق المصرية العائدة للألف الثاني على أن هناك عشرات من دويلات المدن الكنعانية مثل حاصور وعسقلان وشكيم والقدس.

ويشير" د. معاوية ابراهيم " إلى علاقات سياسية متطورة وتجارية كذلك مع مدن المشرق العربي وبشكل خاص مع مصر وعمق بلاد الشام (8).

ويضيف الباحث بأنه في هذه المرحلة بدأنا نشعر بأن المصادر المكتوبة عامة والمصرية خاصة أصبحت تسهم لأول مرة في كتابة تاريخ فلسطين وتاريخ بقية أجزاء بلاد الشام الجنوبية. علماً بأن المصادر المكتوبة انتشرت في مصر وبلاد الرافدين وشمالي سورية منذ بداية الألف الثالث

ق.م ولم تكن هذه المصادر لتؤدي دوراً مباشراً في جنوبي بلاد الشام أو تعطينا معلومات عن هذه المنطقة إلا بعد ما يقل عن ألف سنة.

ونحن نعتقد أن هذا الغياب المعرفي في الوثائق المشرقية والمصرية خلال الألف الثالث كان يحكمه الواقع المفترض في فلسطين آنذاك سواء لجهة الوسط المناخي أو لجهة المنظومة التي تحكمت في غياب المدن آنذاك واقتصار التواجد السكاني على مجموعات قبلية مرتحلة ربما شكّل العموريون معظمها في أثناء جولانهم عبر مناطق الشرق العربي وربما شمال الجزيرة العربية.

ولعل قراءة الوثائق المصرية في تلك الفترة تعطينا فكرة مهمة عن الحياة في فلسطين في الألف الثاني قبل الميلاد، فالمصريون حسب الوثائق سعوا لاستغلال مناجم النحاس في سيناء وجنوبي فلسطين، كما أن قصة " سنوحي " زودتنا بمعلومات مهمة عن الحياة اليومية والمحاصيل الزراعية في عمق فلسطين مثل إنتاج القمح والشعير والزيتون وأنواع مختلفة من الفواكه، وحقول الكرمة والتين الكثيرة. وتشير إلى أن طعام السكان يتضمن اللحوم والعسل ومنتجات الألبان. كما ذكرت في هذه الوثائق معلومات عن أسماء الآلهة في فلسطين كالإله حدد والإله آنو وشماش إله الشمس والإله بعل والآلهة بعلة ما يعطي دلالة واضحة على أن سكان فلسطين في الألف الثاني قبل الميلاد كانوا ينتمون إلى النسيج الاجتماعي للمشرق العربي بكافة أوجهه الدينية والديمغرافية والاقتصادية والتجارية.

وتلحظ الباحثة البريطانية " كاتلين كينيون " أنه في هذه الفترة شهدت المواقع الفلسطينية ظهور خناجر بكتف عريض ونصلة محززة وفؤوس يتخللها فتحة للمقبض وكذلك رؤوس السهام بمقبض مثقوب، ومثل هذه

الأدوات كانت معروفة في عدد من المواقع شمال سورية وخاصة في الساحل السوري مثل رأس شمرا وجبيل وإبلا وغيرها. وتعتقد الباحثة بناء على هذا على أن ثمة جماعات بشرية دخلت فلسطين من الشمال وتعتقد أن هذه الجماعات كانت وراء إعادة إعمار المدن وإدخال صناعات فخارية ومعدنية / برونزية / جديدة في فلسطين وقد دعمت رأيها هذا بمكتشفات تعبّر عن وحدة حضارية لشمالي سورية وجنوبها في هذه الفترة مع أن مثل هذا الترابط كان قائماً منذ العصر الحجري الأخير(9).

وتشهد فلسطين في هذه الفترة تطوراً ملحوظاً في عديد المدن المحصنة التي قامت على أنقاض مدن من العصور السالفة.

ولعل موقع مدينة حاصور / تل القدح / يعبّر بقوة عن طبيعة هذه المدن حيث أنها أوسعها وأقواها / 700/ دونم. ولدى دراسة تحصينات هذا الموقع تبين أنه مسوّر وله بوابات ضخمة لها مدخلان أو ثلاثة مداخل متتابعة وينتصب على جوانبها الداخلية لوحات جدارية حجرية.

وقد أكدت الأبحاث أن هذه التحصينات انتشرت في مدن المشرق العربي كافة من كركميش إلى رأس الشمرة وتل عطشانة وتل مرديخ /إبلا/.

كما كشف عن مثل هذه الشخصيات في موقع تل القاضي شمال بحيرة طبرية وتل بلاطة بالقرب من نابلس وكذلك في تل بيت مرسيم وتل الدوير وتل أبو شوشة وتل الفارعة الجنوبي وتل العجول بالقرب من غزة وتل عين السلطان / أريحا/ وتل دير علا في غور الأردن.

وتبين نتيجة الكشوفات أن وجود عدد كبير من مواقع هذه الفترة تمتد على طول الساحل الفلسطيني ابتداءً من حيفا في الشمال وحتى غزة جنوباً.

ويبدو أن كل مجموعة من هذه المواقع كانت تتبع أحد المراكز المحصنة الكبيرة لتمثل بمجموعها دويلات مدن أو مراكز سياسية، وقد قدمت وثائق ماري العائدة للقرن الثامن عشر قبل الميلاد معلومات عن علاقات اقتصادية متينة مع موقع حاصور في فلسطين، حيث كانت حاصور تصدر القصدير الذي يشكل عنصراً هاماً في صناعة البرونز(10).

لقد شكلت حاصور مدينة على مستوى حضاري واحد مع مثيلاتها ومعاصراتها في المشرق العربي كبابل وماري وقطنا وكركميش وإبلا وغيرها وكانت جزءاً من دورة حياة المشرق العربي آنذاك. رغم امتلاكها لعلاقات جيدة مع مصر.

وبالعودة إلى مدن الرافدين وشمال سورية فإن ما نلاحظه خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد هو أن هذه الفترة تزخر بالوثائق الكتابية / رقم مسمارية / سواء في بابل أو ماري أو إبلا وشوباط أنليل ونوزي الخ...

ولكن الذي يجدر ذكره هنا هو الغياب التام في هذه الوثائق عن ذكر ابراهيم الخليل التوراتي وانتقاله إلى فلسطين وصراعه مع ملوك إلى ما هنالك.. ما يعطي انطباعاً عن حصول اختلاق لقصة هذا الرجل وأوهام انتقاله إلى فلسطين، بالإضافة إلى أن المدينة التي جاء في التوراة أنه انطلق منها وهي أور الرافدية كانت قد غابت في مدارج النسيان منذ أن دمرها العيلاميون في حدود/2800/ ق.م.

الجدير ذكره هنا هو أنه في عام /1770 /ق.م سيطر الهكسوس على مصر وقد تبين أن حكامهم كانوا يحملون أسماء عمورية وقد حكموا مصر وسورية وفلسطين من عاصمتهم التي أسسوها على دلتا النيل / تانيس /.

والذي يبدو بأن فترة حكم الهكسوس شهدت ازدهار المدن في فلسطين حيث أظهرت الكشوفات الأثرية تحصينات ضخمة في تل دان (لايش) وتل وقاص (حاصور) وأريحا وتل المتسلم / مجيدو / وتعنك وتل دوثان وتل بلاطة / شكيم/ وبتين والقدس وخربة الطبيقة / بيت زور/ وتل الرميلة / بيت شمش / وجيزر /أبو شوشة / وتل الدوير / لا خيش / وتل بيت مرسم وتل الجريشة ويافا وعسقلان وتل النجيلة وتل العجول وتل الفارعة الجنوبي / شاروحين/ وتل الميشاش وتل الملح. وقد لعبت هذه المدن دوراً مهماً في فترة حكم الهكسوس لفلسطين وكانت حاصور في أقصى فاعليتها التاريخية (11).

وتشير الدراسات إلى أن اسم (أمورو) قد تطور في هذه الفترة من تسمية جغرافية عامة لسورية وفلسطين إلى تسمية للمنطقة الجنوبية من سورية وفلسطين.

أما عن فاعلية الهكسوس فقد تم إنهاؤها في حوالي/ 1567/ ق.م وبقيت المدن الكنعانية تحت تأثير الفاعلية المصرية وقد تميزت الفترة بين / 1550–1200/ ق.م بانتعاش التجارة الدولية والتبادل التجاري.

الوضع السياسي في المشرق العربي منذ 1800 وحتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد:

شكّلت مدينة ماري على الفرات الأوسط مركزاً مهماً في هذه الفترة حيث شكلت صلة الوصل بين جناحي المشرق العربي. كما أبانت وثائقها العائدة لتلك الفترة عن علاقاتها التجارية الواسعة مع منطقة الخليج العربي وفلسطين والأردن.

بالإضافة إلى ماري كانت آشور في قمة فاعليتها التاريخية بحيث استطاعت أن تسيطر على ماري لفترة من الفترات. كما أن بابل لمع نجمها مع اعتلاء حمورابي سدة حكمها /1792–1750 /ق.م وهو الذي أنهى فاعلية ماري بشكل نهائي. كذلك نجد قطنا/ تل المشرفة في سورية قرب حمص/ ويمحاض مملكة حلب التي كان لها أوثق العلاقات مع ماري بالإضافة إلى إبلا.

ومع سقوط ماري انتقلت الفاعلية التاريخية إلى ترقا وإيمار وكركميش وتوتول وقطنة وأوغاريت وإبلا وآلالاخ. ويلاحظ أنه مع عوامل تمدد الفاعلية الحثية مع بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد مضافاً إليها ضعف المدن المشرقية ولا سيما ممالك سورية الشمالية، كل ذلك أدى إلى توغل الحثيين في سورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد بحيث أن غياب المدن في منطقة الفرات الأوسط سهّل هذا التوغل.

مع الإشارة أنه في القرن 16 قبل الميلاد تكونت في أعالي الخابور مملكة سورية جديدة حكامها من أصل حوري/ ميتاني رغم أن أغلبية السكان كانوا من أصل عموري.

ومع النصف الأول للقرن 15 ق.م امتد نفوذ مصر نحو شمالي سورية لا سيما بعد الحملات العسكرية التي خاضها الفرعون تحوتمس الثالث/ 1479–1426/ ق.م حيث سيطر على جميع مناطق بلاد الشام تقريباً.

وقد استطاع هذا الفرعون إخضاع المدن من مجدو وقطنا ودمشق وحلب وجبيل وبقية الساحل المشرقي بما فيه مدن الساحل الفلسطيني.

وقد أدى الاحتكاك بين النفوذ المصري في بلاد الشام مع النفوذ الحثي إلى خلق صراع مصالح ونفوذ بين الطرفين على بلاد الشام وهو ما قاد في النهاية إلى مواجهة عسكرية بينهما في معركة قادش عام /1286/ ق.م بحيث لم تحسم نتيجة المعركة لطرف على آخر، ما أدى إلى توقيعهما اتفاق سلام بحيث تقاسمت الدولتان النفوذ على بلاد الشام وتم في ذلك أن المناطق الواقعة شمال الخط الممتد بين جبيل على البحر المتوسط وحتى الفرات غرباً أصبحت تتبع الفاعلية الحثية في حين أن المناطق الواقعة جنوب هذا الخط تتبع الفاعلية المصرية.

والجدير ذكره هنا هو أن البنية الديمغرافية للمشرق العربي اشتملت آنذاك على مزيج عموري كنعاني بابلي وآشوري وحوري مع طلائع الآراميين الذي أخذ تواجدهم بالازدياد تدريجياً مع ملاحظة صعود فاعلية آشور الجديدة في الجناح الشرقي للمشرق.

ووسط كل هذا كان على بلاد الشام ومصر والحثيين أن يتهيأوا لهجوم شعوب البحر الذي سوف يدمر مدن الساحل السوري الكنعانية بالإضافة إلى حاتوشا عاصمة الحثيين وكركميش وأوغاريت. وهنا سوف يكون على بلاد كنعان الجنوبية / فلسطين / أن تتهيأ لاستقبال جماعات مرتحلة بدوية هم العبرانيون حيث سيدخل المشرق العربي حينها في أتون صراع بين ذهنيته وخصائصه الحضارية المنفتحة القائمة على خاصية التفاعل والتمازج وذهنية الجماعات المرتحلة التي سعت إلى ممانعة ومعاكسة التفاعل والتمازج بإيحاء من شيوخ القبائل ورجال الكهنوت العبراني.

وهذا ما سنناقشه في الفصل التالي.

استنتاجات حول العصور التاريخية في المشرق العربي3500-1250ق.م :

نستطيع مما سلف أن نستنتج عدة أفكار تُعنى بجهة بحثنا:

***أولها*: أن التواصلية الحضارية في المشرق العربي استمرت منذ العصر الحجري الحديث وصولاً إلى فجر التاريخ. بحيث شهدنا ولادة المدن الأولى في الجناح الرافدي والشامي منذ منتصف الألف الرابع ثم تبع ذلك ابتكار منجز الكتابة مع نهاية الألف الرابع. مع ملاحظة أن الثقل الحضاري في النصف الأول من الألف الثالث كان يتجه للجناح الرافدي تبعاً لإشراطات التطور في الفترات السابقة ولكن واعتباراً من الثلث الثاني من الألف الثالث نلاحظ تزامناً وتفاعلاً بين مواقع كلا الجناحين حسمها في نهاية الأمر الفعل الديمغرافي العموري بحيث أننا مع بداية الألف الثانية أصبحنا أمام ممالك دول عمورية كنعانية على مدى المشرق.**

أما بالنسبة لفلسطين في الألف الثالث قبل الميلاد فيبدو أنه ولأسباب مناخية لم تشهد المواقع هنا فاعليتها، وكان علينا الانتظار حتى مطالع الألف الثاني لتنهض مدن الجنوب المشرقي وتفعل فعلها الحضاري إلى جانب مدن المشرق الأخرى.

ثانيها: أن موقع فلسطين شكّل بوابة مصر للعلاقات المصرية – المشرقية، لهذا نجد أن العلاقات المصرية – الكنعانية الجنوبية كانت متينة وفي بعض الحالات كانت علاقات سيطرة مصرية عليها حين يضعف العمق المشرقي.

ودليل ذلك أن علاقات مصر مع جبيل لم تكن علاقات سيطرة مباشرة ودائمة إلا حين يضعف العمق المشرقي في دعم جبيل. وهذا يكمن في صراع المصالح ببعده الأساسي.

ثالثها: لاحظنا في الألف الثاني قبل الميلاد أن التواصلية الحضارية السكانية في فلسطين كانت تتبع البنية الديمغرافية المشرقية وكان الأساس العموري الكنعاني هو الطاغي على النسيج الاجتماعي.

رابعها: أن الوثائق المسمارية المشرقية لم تأت على ذكر ابراهيم الخليل التوراتي ورواية خروجه من أور/ التي كانت مدمرة / رغم أن تلك الوثائق لم تترك شاردة أو واردة إلا وذكرتها.

وهنا تستوقفنا رواية الآباء التوراتيين الواردة في التوراة والتي يبدو أن لا أساس تاريخي لها ولا ذكر لها في الوثائق المشرقية، عنيتُ إبراهيم– إسحق – يعقوب.

ثبت المراجع والهوامش:

1 – بورهارد برنيتس – مرجع سابق.

2 – المرجع السابق.

3 –علي أبو عساف – آثار الممالك القديمة في سورية – وزارة الثقافة – دمشق1988.

4 – معاوية ابراهيم – من كتاب الوحدة الحضارية – مرجع سابق.

5 – يشير الدكتور عيد مرعي إلى علاقة اللغة العربية باللغة الأكادية فيقول: إن جذور اللغة العربية موجودة في اللغة الأكادية، وقد أظهرت الأبحاث اللغوية أن معظم التراكيب اللغوية والقواعدية ومصادر الأفعال وجذورها وتعاريف الأسماء والصفات الأكادية تشبه ما هو موجود في اللغة العربية.

انظر عيد مرعي – إبلا– دار الأبجدية –1991.

وكذلك مؤلف الدكتور محمد بهجت قبيسي " فقه اللهجات العربيات " دار شمأل. دمشق 1999.

ومؤلف الدكتور فيصل عبد الله " مقدمة في علم الأكاديات " دار الأبجدية –دمشق1990.

6 – فيصل عبد الله– الحوليات الأثرية السورية – مجلد43.

7 – معاوية ابراهيم – من كتاب الوحدة الحضارية – مرجع سابق.

8–9–10– المرجع السابق.

11– حمدان طه – المرجع السابق.

مراجع البحث الأخرى:

- **قاسم طوير– أضواء جديدة على تاريخ بلاد الشام – مجموعة باحثين – دمشق 1989 – دار عكرمة.**
- **حرب فرزات – عيد مرعي – دول وحضارات في المشرق العربي القديم– دار طلاس – دمشق1993.**
- **SYRIA,TERRE DE CIVILISION.QUEBEC.2001**

غولايف – المدن الأولى – دار التقدم – موسكو –1989–ت: طارق معصراني

الفصل الثالث

طروء العبرانيين على بلاد كنعان الجنوبية 1250 ق.م:

في حوالي/ 1250/ق.م بدأت القبائل العبرانية بالتغلغل إلى أطراف بلاد كنعان الجنوبية، وكانت هذه القبائل في حالة أولية من الثقافة بحيث كانت تمثل الحالة الرعوية البدائية ذات التنظيم القبلي، في مواجهة حضارة كنعانية متجذرة عبر آلاف السنين وتعبّر عن نفسها بالمدن الضخمة والمسورة والنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ويواكب كل ذلك جملة من التطورات في مجال الحياة الذهنية والاعتقادية والثقافية والروحية.

يقول المؤرخ الفرنسي " جان بوتيرو ":

" حين مجيء اليهود إلى فلسطين، كانت هذه البلاد مسكونة من قبل الكنعانيين، حيث يعود استقرارهم إلى قديم الزمن. وقد أخذ اليهود كل شيء عن الكنعانيين بما في ذلك لغتهم. فالحياة البدوية أو نصف البدوية /التي كانت عليها المجموعات العبرانية / عبارة عن ثقافة وليست حضارة، إنها أسلوب في الحياة بدائي وقاس. سمته التقشف الذي لا يؤدي إلى أي نوع من التهذيب في أي مجال.

هكذا كان الإسرائيليون، يعيشون حياة البداوة منطوين على أنفسهم، لا يعرفون أكثر من حياتهم اليومية المتمركزة حول ماشيتهم وخلافاتهم مع بدو آخرين أو مع حضر يمتلكون أموالاً نافعة.

أما مستواهم الفكري والثقافي فزهيد جداً يقوم على ما ترويه التقاليد الشفوية عن جذورهم وعن هذا الرباط الوثيق مع يهوه الذين كانوا ينظرون إليه على الأرجح كنوع من شيخ فوق طبيعي لعشيرتهم.

أما الكنعانيون الذين استقروا في فلسطين منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، فكانوا يعيشون منذ زمن طويل حياة متحضرة بالمعنى الصحيح

للكلمة، حياة رخاء وانفتاح، وكان لديهم تنظيمات اجتماعية وسياسية وكانت عاداتهم مهذبة ومتمدنة، كانت سمات حضارة حقيقية. فقد كانوا يبدعون في إنتاج ما لم يكن لهم به منفعة مباشرة وبالإجمال لقد عكسوا فكر وفلسفة ذلك الزمن " (1).

إذن نحن وفق هذا أمام قيم ومعايير ورموز لثقافة رعوية تجاه منظومة حضارية كنعانية، وتبعاً لذلك فإن حركة التاريخ في المشرق العربي توضح أن التفاعل الاجتماعي – التاريخي وكذلك التمازج الديمغرافي كانا سمتين أساسيتين في خصائص حضارة هذا المشرق.

وكنا أوضحنا سابقاً معالم الامتزاج بين أرومات مختلفة وليس آخرها الآراميون الذين كانوا وقت طروء العبرانيين يتمازجون مع المجتمع المشرقي.

ولكن وفي المقابل يبدو أن شيوخ العشائر العبرانية كانوا يسعون لمنع حصول هذا التفاعل خشية ذوبان وضياع العبرانيين في المرجل الحضاري الديمغرافي المشرقي الإنساني. لذا نجد أنهم حاولوا فرض ثقافتهم وأفكارهم الانعزالية على المجموع العبراني والذي يبدو أن وعي هذه المؤسسة بشقيها الاجتماعي والديني / أقصد شيوخ القبائل والكهنة / للتفاوت الكبير بين حضارة الكنعانيين وثقافة العبرانيين الضحلة هو الذي دفعهم إلى الارتكاس والنكوص وإحساسهم بدونيتهم في المستوى النفسي الجمعي مما خلق حالة تعويضية في هذا المستوى، تجلت في السلبية والانعزال والعدوانية لا بل ومحاولات تدوين أخبارهم وتواجدهم / فيما بعد وأثناء السبي البابلي/ بشكل مبالغ فيه ومضخم كتعويض في المستوى النفسي الجمعي.

وفوق كل ذلك هو مبلغ الانتحالات والسرقات التي استلبها كتّاب التوراة من تراث المشرق العربي الرافدي والكنعاني في كافة أبعاده الذهنية

والحضارية لا بل وتشويه ما أمكن تشويهه كي يلائم النوازع النفسية السلبية عند أحبار المؤسسة الكهنوتية وقادة المجموع العبراني.

يقول جان بويترو في كتابه " بابل والكتاب المقدس ":

" إن التماثل الأساسي للتوراة وتبعيته (للتراث المشرقي) أمران لا يناقشان. لكن الأمر الذي لا يقلّ وضوحاً هو أن مؤلفيه لم ينقلوا إلى لغتهم النصوص أو المعطيات البابلية كلياً وآلياً، بل فهموها وأعادوا صياغتها وتكييفها مع منظومتهم الدينية الخاصة، الأحادية، الحصرية " (2).

وعلى كل هذا فإننا سننتظر زمناً أكثر من ستة قرون حتى يُسبى العبرانيون هؤلاء إلى بابل وهناك سوف يسعى أحبارهم إلى كتابة توراتهم ولا سيما في أسفاره الخمسة الأولى / التكوين – الخروج – اللاويين – العدد – التثنية / حيث سيخطون مرويات وحكايات هوامية حول أصولهم التي تعود إلى الرافدين في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وسيقسمون البشرية إلى عناصر ويخلقون إلهاً يماثل ما يعتلج في خافيتهم الجمعية / يهوه/ ويمنحونه حق منحهم استعلاء على البشر ويعدهم بأرض موعودة في فلسطين.. وكل هذا يندغم مع انتحالهم للتراث الرافدي الكنعاني الإنساني وعنصرته تبعاً لنوازعهم النفسية السلبية.

فإذا كان التوراة قد ذكر أن العبرانيين قدموا إلى بلاد كنعان من مصر عبر سيناء، فإن المعطيات الآثارية والوثائقية المصرية لم تذكر هجرة أو ملاحقة لشعب ما عبر صحراء سيناء.

بالإضافة إلى ذلك فإن اكتشاف مقابر الفراعنة في وادي الملوك في مصر ومن بينها قبر الفرعون مرنبتاح /1236–1223/ ق.م والذي ينبغي أن تكون هجرة العبرانيين قد تمت في عهده إلى بلاد كنعان، حيث ورد في

التوراة أن هذا الفرعون لحق موسى التوراتي ورجاله ثم أطبقت عليه مياه البحر الأحمر كمعجزة من موسى النبي التوراتي! ولقي حتفه غرقاً! فقد تبين نتيجة معالجة جثة هذا الفرعون أنه مات ميتة طبيعية ولم يقض غرقاً.

وفوق ذلك.. فليس لدى الباحثين والآثاريين أي دليل أثري عن وجود قبائل عبرت صحراء سيناء نحو بلاد كنعان.

لهذا نحن نرجح أن هذه القبائل ومع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد كانت تجول في بوادي وقفار شمال الجزيرة العربية نحو جنوب بلاد كنعان وحيث أنها جُذبت بمعالم الحضارة الكنعانية في فلسطين فقد بدأ تغلغلها السلمي وبشكل غير نظامي. وتشير المعطيات التاريخية إلى أن عددهم لم يزد عن ثلاثة آلاف شخص.

يقول " ول ديورانت ":

" كان اليهود في ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلاً، يخافون شياطين الهواء ويعبدون الصخور والماشية وأرواح الكهوف والجبال.. ولم يمكثوا في فلسطين فترة وجيزة " (3).

ويجمع الباحثون على أن مكوث هذه القبائل في بلاد كنعان لم يتوضح إلا في الفترة بين /1040–932 /ق.م حيث تجمعوا في قرى فقيرة وبسيطة بدليل أن لا آثار مادية أو كتابية تدل على وجود حضاري فاعل يعبّر عن نفسه في إنشاء المدن، أو لقى وآثار تدل على حضور فاعل ومستقر.

كما أن المعطيات الآثارية في فلسطين لم تدل على حصول هجرة منظمة لشعب ما إلى بلاد كنعان حيث أن التواصلية والاستمرارية متوفرة بين العصور / البرونزي الأخير والحديدي / وليس ثمة انقطاع.

يقول" توماس طومسون ":

" لقد كان ظاهراً على الدوام مذ أقرّ الآثاريون لأول مرة بالصفة المحلية / الأصلية/ للحضارة المادية لجنوب المشرق، إذا كان ثمة إسرائيل ما، دخل فلسطين من الخارج، فليس لدينا أي دليل على ذلك في السجل الآثاري. ولكن بالطبع إذا كان مثل هذا الشعب على الدوام جزءاً من سكان هذه المنطقة فإننا بالقدر نفسه، نفتقر إلى الدليل على ذلك " (4).

ويضيف الباحث:

" إن الشيء الحاسم لفهم تاريخ فلسطين وللعلاقة بين التوراة والآثاريات، هو الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى بدايات العصر الحديدي. فبسبب كرونولوجيا الكتاب، تم تحديد هذه الفترة بأنها خالقة بشكل خاص للهوية الإسرائيلية ومع ذلك عندما يستقصي المرء تاريخ فلسطين بشكل مستقل عن الرواية الكتابية / التوراتية/ للماضي، فإن هذه الفترة تشي بدليل واهٍ عن نشوء إسرائيل الكتابية " (5).

إذن نلاحظ مما تقدم أن الأدلة الأثرية تدحض:

- هجرة العبرانيين من مصر إلى بلاد كنعان وبالتالي انعدام الدليل على وجود عبراني في مصر.
- أن العبرانيين كانوا عبارة عن بداة مرتحلين بأعداد ضئيلة طرأوا على بلاد كنعان بشكل انتقالات غير منتظمة ودون عبور لسيناء وتوهان فيها لمدة أربعين عاماً.
- أن دخولهم إلى أرض كنعان كان دخولاً سلمياً لا كما ورد في سفر يشوع بالتوراة ونحن نعتقد أن هذا الانتقال كان بحثاً عن المراعي والكلأ لمواشيهم وليس له أي خلفية وجودية أو سياسية.

يقول الباحث " جوزيف كالووي ":

" بعد استعراض جميع الوثائق الأركيولوجية من المواقع الفلسطينية التي ذكرها سفر يشوع، لا أظن بأننا نستطيع القول على أن الغزاة الإسرائيليين قد سيطروا على المناطق الهضبية والجليل بعد معارك عسكرية خاطفة.. وأن الشواهد الأثرية غير مقنعة وتتعارض في معظمها مع المرويات التوراتية إلى درجة لا يستطيع معها أنصار نظرية الفتح العسكري إقناعنا بها إلا بواسطة الإيمان الأعمى "(6).

وتشير الأبحاث الأركيولوجية على أن دخول العبرانيين إلى بلاد كنعان أدى بهم إلى استطيان مناطق الهضاب المركزية في فلسطين والتي كانت شبه خالية منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. ويحدد" ألبرت ألت " أن هذه المناطق تقع في الهضاب البعيدة عن المدن الكنعانية المهمة في الجليل ووادي يزرعيل وسهل شقلح وفيليسطيا. ويؤكد هذا الباحث على أن المدن الكنعانية آنذاك كان عبارة عن دويلات مدن زراعية وثيقة العلاقة بالعالم السوري كما أنها تدين بالديانات التقليدية.(7)

وفق ذلك، أعتقد أن الصورة البانورامية لحركة التاريخ آنذاك قد وضحت. فمقابل نفر قليل من البدو والمرتحلين الذين طرأوا إلى بلاد كنعان نجد أن ثمة مدناً كنعانية وتواجداً بشرياً مشرقياً موغل في القدم، بالإضافة إلى وجود فاعلية مصرية قائمة بذاتها وحضارية موغلة هي الأخرى في القدم، ناهيك عن أن حضارة كنعان الجنوبية كانت تستند وبعمق إلى عمقها الحضاري المتجسد في حضارة المشرق العربي والتي تعود إلى مليون سنة.

لذا فإن مقولة "جان بوتيرو " تضعنا أمام الحقيقة المتبدية في أن: " الإسرائيليون، ذلك الشعب المجهري بالمقارنة مع عملاق المشرق العربي،

الذين لم يكن لهم وجود يذكر على المسرح السياسي. إذ لم ينتصروا ولو مرة واحدة في معارك كبرى، وعلى المستوى الثقافي كان الإسرائيليون مدينون بالكثير الكثير لسابقيهم وجيرانهم حيث أنهم لم يخترعوا شيئاً، كما ولم يقدموا للعالم شيئاً في مجالي التقنية والعلوم " (8).

حتى أن ما عرف عن العبرانيين في الأدبيات التاريخية للقرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين من أنهم أصحاب التوحيد الأُول في التاريخ، فقد تم دحض هذا الاعتقاد بعد الكشوفات الهائلة لمواقع المشرق العربي ومصر، فاستناداً إلى النصوص المسمارية استطاع المستشرق الأمريكي " أولبرايت " أن يبرهن على أن النزعات التوحيدية كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في بلدان آسيا الغربية في الفترة الواقعة بين/ 1500–1200 /ق.م. (9)

إذن نحن هنا إزاء جماعات استوطنت مناطق الهضاب المركزية وكانت على حالة أولية من الثقافة، ولكون أن الحضارة الكنعانية كانت قد قطعت أشواطاً هائلة في العمران والقيم والتمدن والشرائع فخشية ذوبان هذه الجماعات فيها عمد قادة وأحبار هذه الجماعات إلى التعرف إلى بنية هذه الحضارة وماهيتها لتعمد تالياً وبعد حوالي ستة قرون وعند سبيهم إلى بابل لانتحال كل المنجز الكنعاني واستلهامه وصب جام غضبهم على الكنعانيين في التوراة وذلك في موقف تاريخي سلبي لم يشهده المشرق العربي حتى تلك الفترة من تاريخه.

كما أن الدونية الحضارية التي كانت عليها هذه الجماعات عبر ثقافتهم الرعوية(10) جعلت كتاّب التوراة في المؤسسة الكهنوتية أثناء السبي يعمدون إلى انتحال مجمل النظم الاجتماعية والقانونية والتشريعية الكنعانية بالإضافة إلى مجمل الإبداع الذهني الإسطوري والأدبي والمعتقدي

الذي اشتمل عليه المنجز المشرقي الكنعاني من جهة والرافدي من جهة أخرى.

وهنا لابأس من العبور لما يزيد على الستة قرون كي نصبح في بابل، حيث سنحاول الإضاءة على العالم البابلي الذي أدى إلى هذه السلبية في المؤسسة الكهنوتية التوراتية والتي عمدت إلى تدوين التوراة في أسفاره الخمسة الأولى إبان السبي.

السبي البابلي 586 ق.م:

لا يمكن فهم معالم السبي الآشوري أو البابلي في الألف الأول قبل الميلاد، إن لم تتم الإضاءة على العالم السياسي آنذاك.

فإلى جانب الفاعلية المصرية والتي ترتبط بفلسطين ارتباطاً مصلحياً كون أن الثانية هي بوابة مصر إلى العمق المشرقي، ما يعني أن استقرار فلسطين عامل حاسم في توازن الفاعلية المصرية لجهة مصالحها. وفي المقابل كانت الفاعلية الآشورية في المشرق يعنيها ألا تكون فلسطين ثغرة أمنية ووجودية لها ولا سيما مع تواجد العبرانيين فيها والذين استطاعوا أن يلعبوا على هذا الصراع الخفي المصلحي بين مصر والمشرق العربي.

لهذا فإن معالم السبي المتكرر للعبرانيين والذي حصل في/ 722 721 /ق.م ثم في/ 597 ق.م 586 /ق.م وهو ما يعتبر السبي المركزي والأساسي، كان يستند ليس إلى بعد عنصري كون أن المسبيين عبرانيين، بل لقد عانت أرومات عديدة من السبي الآشوري والبابلي ومنها الآراميون والمصريون وغيرهم.

وتخبرنا الوثائق الكتابية لشاروكين الآشوري /722 /ق.م أن الممالك السورية لم تدفع الجزية لآشور ومنها السامرة وهذا ما دفع بشاروكين إلى مهاجمتها وسبي قسم كبير من سكانها كما حصل في مملكة حماة وكذلك السامرة عام/ 721 /ق.م.

وقد جاء في حوليات هذا الملك:

" لقد حاصرت السامرة وفتحتها وسبيت/ 27290/فرداً من سكانها. وجهزت من بينهم فصيلة من خمسين عربة ألحقتها بفيلقي الملكي. أما المدينة فقد أعدت بناءها، فصارت أفضل مما كانت عليه وأسكنت فيها شعوباً من المناطق الأخرى التي قهرتها " (11).

بذا نلحظ أن السبي للعبرانيين من السامرة لم يكن لدواع عنصرية بل كان يشمل كل من يقف في وجه الفاعلية الآشورية ولا يعترف بها. فالسبي البابلي للعبرانيين لم يكن يتقصدهم كما يحاول التوراة الإيحاء به لا بل والإشارة إليه عبر الفخر من قناة الاضطهاد والنبذ وبالتالي صب اللعنات على بابل / الزانية /! .

وبالعودة أيضاً إلى آشور حين كان يحكمها أسر حدون/ 680-669 /ق.م فقد وصل هذا الملك بفتوحاته إلى مصر حيث ألحقها بآشور بعد أن شمل بلاد الشام كافة حيث ورد في حولياته:

" دعوت إليّ ملوك حاتي / مناطق غرب الفرات / وهم: بعلو ملك صور – منسي ملك يهوذا – قوش جبري ملك أدوم، موسوري ملك موآب، سلبيل ملك غزة، ميتيني ملك أشقلون، إيكو ملك عقرون، ملكيا شبا ملك بيت عمون، آبي ملكي ملك أشدود../ ويضيف أسماء ملوك من جزر

وشواطئ قرطاج وكريت وقبرص../ ويضيف.. كل هؤلاء أرسلتهم إلى نينوى مقر ملكي وجعلتهم ينقلون تحت أقسى الظروف مواداً لبناء قصري " (12).

الجدير ذكره أن هذه الفتوحات الآشورية لم توفر أحداً من السبي بما يتعدى خمسين أرومة ديمغرافية واجتماعية وهذا ينفي كون أن السبي البابلي ذي أبعاد عنصرية كما يوحي التوراة أو اليهود الحاليون. أما بالنسبة للسبي الأخير الذي قام به" نبوخذ نصر "عام/ 586/ ق.م فكان السبب المباشر له هو أن زعيم عشيرة العبرانيين صدقيا رفض دفع الجزية لبابل حسب العهد أو الوعد الذي بين بابل وبينه، ونحن بتنا نعلم أن دفع الجزية تعني اعتراف العبرانيين بالولاء لفاعلية بابل وعدم المساس بأمنها وفاعليتها مقابل الحماية التي تؤمنها بابل لهم.

ولكن وكما يبدو فإن محاولات العبرانيين ليلعبوا في الخفاء على صراع المصالح بين المصريين والبابليين، هو الذي دفع بابل للحسم بحيث أن نبوخذ نصر استدعى شيخ العبرانيين صدقيا إلى ربلة قرب حمص حيث مقر الجيش البابلي وقال له نبوخذ نصر: أيها الوغد الشرير لماذا نكثت بالوعد ؟ / الامتناع عن دفع الجزية لبابل ولعدة سنوات / وبذا تم سبيهم إلى بابل حيث أقاموا في معسكرات خاصة بهم، وسيقوا إلى العمل فيها واستُخدموا في أعمال البناء في أملاك الملك وفي بناء شبكات الري.

وبعد وفاة نبوخذ نصر أعيدت إليهم حريتهم الشخصية بالتدرج فسكنوا في أطراف بابل وشرعوا يمارسون البستنة وزراعة الخضار.

وتعطي الوثائق معلومات عن ممارستهم للأعمال التجارية بحيث جنوا أرباحاً طائلة وثروات هائلة حيث كانت بابل آنئذ مركزاً للتجارة العالمية وهذا ما ساعد بعضهم في أن يصبح من كبار رجال المال ومالكي العبيد.

كما أن بعضهم شغل مناصب مهمة في جهاز الدولة والقصر الملكي.

الجدير ذكره هنا هو أن مدينة بابل في ذلك الحين كان تعداد سكانها ينوف على المليون نسمة. وأن المدقق في أوضاع بابل آنذاك سيصل إلى استنتاجات أن الروحية المجتمعية الإنسانية المتبدية في بابل لا يمكن لها أن تدفع العبرانيين إلى العنصرية والعدوانية ولكن الذي يبدو هو أن المؤسسة الكهنوتية التوراتية في بابل سعت إلى ذلك ولعل زينون كاسيدوفسسكي يلامس هذا الأمر بقوله:

" إن السعي للعزلة التامة عن الشعوب المجاورة أثّر بشكل كبير على الديانة اليهودية حيث غدت أداة تعصب شوفيني وجداراً منع اليهود أن يتلقوا تأثيرات الشعوب المحيطة بهم " (13) .

ويبدو أن هذه التأثيرات استأثرها الأحبار لهم بحيث بدأوا بكتابة التوراة في أسفاره الخمسة الأولى مستمدين كل المنجز الحضاري المشرقي في الرافدين حالياً وسابقاً في كنعان بحيث اختلقوا مرويات الأصول والآباء والخروج الهوامي من مصر وعبورهم لصحراء سيناء ثم دخولهم دخول الفاتحين المنتصرين إلى أرض الميعاد التي انطلقت فكرتها أثناء السبي بحيث تم خلق إله يناسب كل الروائز النفسية السلبية لدى الأحبار بما يُدخل المشرق في صراع بين ذاته المنفتحة والذات المريضة الطارئة.

وعطفاً على كل هذا فلا بد لنا أن نناقش ونوّصف العالم البابلي خلال فترة السبي لنظهر أن كل ما ظهر من المؤسسة الكهنوتية التوراتية كان يقصد به تدمير معالم الانفتاح وأهم خصيصة من خصائص المشرق العربي، عنيتُ خاصية الانفتاح، والتفاعل والتمازج الاجتماعي.

إن إحدى الوثائق البابلية /الآشورية التي تعود للملك الآشوري آشور بانيبال/ 668–626 /ق.م تذكر قول هذا الملك لمجموعة من مواطني بابل / حيث كانت بابل تتبع الفاعلية الآشورية /:

" إن بابل قبل المعمورة، وكل من يدخل إليها يحصل على امتيازات معينة. حتى الكلب الداخل إلى بابل يمنع قتله " (14).

وتشير المعطيات التاريخية والوثائقية إلى أن مجتمع بابل في الألف الأول قبل الميلاد كان مجتمعاً فسيفسائياً حيث نجد الآراميين والكلدانيين بشكل رئيس بالإضافة إلى أرومات المشرق العربي المختلفة كالكنعانيين والعموريين بالإضافة إلى أرومات لا تنتمي إلى النسيج الديمغرافي الاجتماعي للمشرق.

وتشير إحدى الوثائق من موقع نيبور وتؤرخ في حوالي/450/ق.م وتخص وثائق لدار العمل العائدة لأسرة العبراني ماروشو إلى أن حوالي ثلث أسماء الأشخاص المتعاقدين والشهود غير بابلية، كما لوحظ وجود مصريين إيرانيين وهنود وعيلاميين وأرض وعرب...الخ.

لا بل أن إحدى الوثائق تدل على طبيعة التمازج الاجتماعي الذي شمل جميع الإثنيات / ما عدا العبرانيين/! حيث تشير هذه الوثيقة إلى أن أحد العيلاميين في بابل قام بتزويج ابنته إلى مصري وفقاً لقواعد الزواج المعمول بها في بابل وذلك عام /511/ ق.م وكان ضمن الشهود فرس وبابليون وآراميون وغيرهم (5) .

إن هذه الوثائق تضعنا أمام وضع أكثر مقاربة لما كان عليه مجتمع بابل في الألف الأول قبل الميلاد والذي يختصر ويمثل مجتمع المشرق العربي بكافة عصوره وصولاً إلى مجتمع تدمر في القرون الثلاثة الميلادية

الأولى. أيضاً يمكننا الإضاءة على التنظيم الاجتماعي في بابل آنئذ حيث تمدنا الوثائق بأنه كان يسمح للغرباء في بابل بتشكيل مجالس شعبية تخص كل مجموعة إثنية. فكان للمصريين مجلساً شعبياً يُعنى بأمورهم ويرتبط بالقصر الملكي وكذلك للعبرانيين الذين كان لممثليهم في القصر حظوة عن سواهم.

وتذكر وثائق نيبور أن مدينة نيبور مثلاً كانت تخصص رقعة أرض لكل مجموعة إثنية.

أما بالنسبة للمجالس الشعبية الآنفة فإنها أُعتبرت منجزاً حضارياً بابلياً ومشرقياً تطلبته الظروف التاريخية الموضوعية لجهة تحقيق التفاعل والتمازج الاجتماعي.

ويشير بونفارد – ليفين إلى أن هذه المجالس تُذكر بما كان قائماً في العصر الهلسنتي/ 333–69/ق.م. واعتبره آنذاك كل من بحث في هذا المجال أنه منجز هلسنتي بينما في الحقيقة فإنه يعود للمشرق العربي في ابتكاره.

وعلى ذلك يقول" بونفارد – ليفين ":

" إن المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية الأساسية والتصورات الإيديولجية التي اتصفت بها المرحلة الهلنستية كانت تستمد جذورها من بابل قبل قيام الامبراطورية الهلنستية " (16).

أما في الشأن الاعتقادي فقد اتصف الوضع في بابل بالتسامح واحترام عبادات الآخر ورموزه. وكما في تدمر، كان الاعتقاد يمتلك حريته المطلقة لدى أفراد المجتمع والمجموعات الإثنية تحت سقف الولاء للدولة وهذا دفع الباحث الروسي" داندا مابيف " للقول:

" إن السمة الرئيسية للوضع الديني في بابل كانت تكمن في عدم غرس روح التعصب تجاه معتقدات الشعوب الأخرى " (17).

وعليه بتنا نفهم مقولة " بونفارد – ليفين ":

" إن المشرق القديم لم يعرف الموقف العدائي من عادات وتقاليد وثقافات الشعوب المجاورة والبعيدة. ولم يعرف الخلافات والصراعات القائمة على أساس إثني أو الحقد العنصري والشعور بتفوق شعب على شعوب أخرى " (18). يتضح من كل ما سبق أن روحية المشرق العربي المتجسدة في بابل الألف الأول قبل الميلاد لا يمكن أن تخلق أوهى مبرر لنشوء أي خصائص عنصرية أو عدوانية أو اغتصابية لدى أي مجموعة إثنية.

وعلى هذا بتنا أمام حقيقة أن المؤسسة الكهنوتية العبرانية في بابل لم يوآتها المناخ الإنساني الذي عهدته فسعت إلى الانتقام منه في مساق تاريخي طويل، بالإضافة إلى انتحال المنجز المشرقي وتدوينه في التوراة على أنه منجز عبراني ولكن بإضاءة بسيطة تبدو لنا الأمور واضحة حيث أن المشرق العربي وضع الأسس الأولى للشرائع والحياة الحقوقية في التاريخ وذلك ما توثقه قوانين لبت عشتار وأور – نمو وقوانين حمورابي ومراسيم إميصادوقا وقوانين إشنونا.

والملاحظ في كل هذا هو أن هذه القوانين كانت ذات صفة مجتمعية وإنسانية ولا تختص فقط بالمجتمعات المشرقية.

وفي المقابل وحين انتحلها الأحبار إلى توراتهم حرفوها بما يلائم نوازعهم النفسية السلبية بحيث أضحت شرائع تختص بالعبرانيين فقط عبر إله خاص لهم وعبر أنهم شعب هذا الإله.. الشعب المختار من بين جميع شعوب الأرض !.

ولكي نوضح أكثر عن أوضاع العبرانيين في بابل والتي يمكننا أن نضيء من خلالها على ما كان يحظى به هؤلاء من رعاية في بابل، فقد ورد في وثيقة مسمارية تعود للقصر الملكي البابلي شرح للمؤن التي كانت تصرف يومياً إلى مختلف القطاعات التي كان يحولها الملك. ومن هذه القطاعات ورد اسم زعيم العبرانيين المسببين يهوياكين حيث ورد في الوثيقة أسماء أبناءه الخمسة وثمانية من الخدم وهذا يؤكد بشكل لا لبس فيه أن زعماء اليهود كانوا يعيشون في بابل باحترام وعلى حساب القصر الملكي البابلي.

أيضاً تشير وثيقة ماروشو الآنفة الذكر والتي تشي بوجود مؤسسة مصرفية عبرانية تحمل اسم " ماروشو وأولاده " إلى أننا أمام نسق من العمل عبر علاقات دولية واسعة أنشأتها هذه العائلة ما يدل على مبلغ الحرية المعطاة لهم.

وقد أمدتنا هذه الوثيقة بمعلومات عن الفائدة التي كانت تتقاضاها هذه المؤسسة حيث تصل إلى 20٪ لقاء أعمال السمسرة التجارية علماً أن هذه النسبة تعتبر عالية جداً نسبة لذلك العصر.

والشيء الآخر الذي تضيء عليه هذه الوثيقة هو ورود أسماء لعدد كبير من اليهود ما يشير بأنهم كانوا يعيشون في بحبوحة كبيرة.

الجدير ذكره هنا هو أنه بعد خمسين عاماً من السبي وبعد سماح الملك الفارسي قورش للعبرانيين بالعودة إلى فلسطين، تؤكد المعطيات التاريخية على أن أصحاب الأموال والعقارات والتجار وكبار الموظفين لم يكونوا متحمسين للعودة وفضلوا البقاء في بابل ولم يعد سوى الفقراء والذين بلغ عديدهم حوالي 5000 شخص بما فيهم النساء والأطفال.

إذن نصل من كل ذلك إلى عدة استنتاجات تختص بعوالم السبي البابلي للعبرانيين:

***أولها*: أن ظاهرة السبي الآشورية والبابلية كانت تقليداً آشورياً يجري على كل الأرومات البشرية والاجتماعية ولا يختص بإثنية أو دين عن سواه.**

***ثانيها*: أن العبرانيين المسبيين تمتعوا بحقوق المواطنة في بابل ومارسوا حياتهم بكل طمأنينة وبحبوحة ودليل ذلك عدم عودة إلا قسم ضئيل منهم بعد السماح لهم بالذهاب إلى فلسطين.**

***ثالثها*: أن كتابة التوراة في أسفاره الخمسة الأولى حصل في فترة السبي وجاء بما يعاكس ذهنية تلك الفترة، وخصائصها الحضارية الإنسانية في بابل، ما يشي بدور المؤسسات الكهنوتية العبرانية في محاولة تكريس ثقافة الغيتو والانعزال والاستعلاء على الشعوب الأخرى لدى المجموع العبراني ويبدو أن هذا لم يكن إلا انعكاساً لما يجول في خافية المؤسسة الكهنوتية من نوازع الدونية وأحاسيس النبذ والتي عبّرت عن نفسها بكل المعاني السلبية التي احتواها كتاب التوراة في أسفاره الخمسة الأولى وتالياً في أسفاره التاريخية وغيرها.**

ولتبيان مدى " إنسانية !" الموقف العبراني / ولا سيما مؤسساته الدينية وبالتحالف مع مؤسساته الزمنية/ نتيجة لاحتضان بابل لهم أثناء السبي، يمكن للقارئ المهتم بالمزيد أن ندعوه إلى قراءة سفر " استير" في التوراة والذي يعبّر بعمق عن الخصائص النفسية للأحبار وشيوخ العبرانيين.

ثبت المراجع والهوامش:

1 – جان بوتيرو– التوارة والمؤرخ – مرجع سابق.

2 – جان بوتيرو– بابل والكتاب المقدس. ت: روز مخلوف – دار كنعان – دمشق2000.

3 – ول ديورانت – قصة الحضارة. ج1+2. ت: محمد بدران.– جامعة الدول العربية –1968.

4 – توماس طومسون– الماضي الخرافي. ت: عدنان حسن– دار قدمس – دمشق2003.

5 – المرجع السابق.

6 – JOSEPH CALLAWAY,THE SETTLMENT IN CANAAN.

7-- ALBRECHT ALT, ESSAYSON OLD TASTAMENT HISTORYAND RELIGION. NEWYORK.1968.

8 – جان بوتيرو: التوراة والمؤرخ – مرجع سابق.

9 – للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب " الواقع والأسطورة في التوراة " لـ زينون كاسيدوفسكي – بطبعته العربية المترجمة والصادرة عن دار الأبجدية 1990 – دمشق – ترجمة : حسان إسحق.

10– تجدر الإشارة هنا إلى أن الثقافة الرعوية لا تعبّر في النظام الاجتماعي الإنساني عن نقيصة، طالما أنها وجه من أوجه التعددية الحضارية الثقافية، إلى جانب الثقافة الزراعية والثقافة العمرانية –المدينية. ولكن أن لا تمتلك هذه الثقافة أدوات التفاعل مع الثقافات الأخرى فهنا تأخذ منحى السلب وعدم التكيف الإنساني.

فنحن نعلم أن العموريون كانوا بداة وكذلك الآراميين، ولكن استطاعوا امتلاك أدوات التفاعل والتمازج حتى صاروا جزءاً من النسيج الديمغرافي والاجتماعي للمشرق العربي. في حين أن العبرانيين وبدفع من مؤسساتهم الكهنوتية والزمنية مزجوا ثقافاتهم الرعوية بالبعد الديني المنغلق والاستعلائي ما جعل منهم نقطة ظلام في إشعاع المشرق العربي الإنساني.

11 –LEO OPPENHIEN.OP.CIT.P.284

12 – المرجع السابق.

13 – زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.

14 – مجموعة باحثين – الجديد حول الشرق القديم – دار التقدم – موسكو.1988.

15–16–17–18– المرجع السابق.

مراجع البحث الأخرى:

- **العهد القديم– دار الكتاب المقدس.**
- **أحمد سوسه – العرب واليهود في التاريخ – دار العربي – دمشق1993.**
- **آرنولد توينبي – تاريخ البشرية. ت: نقولا زيادة – دار الأهلية – بيروت –1981.**
- **بيير روسي – التاريخ الحقيقي للعرب – ت: فريد جحا – وزارة التعليم – سورية 1980 .**
- **فيليب حتي – تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – ت: جورج حداد وعبد الكريم رافق – دار الثقافة – بيروت1980.**
- **كارين أمسترونغ – الله والإنسان. ت: محمد الجورا – دار الحصاد– دمشق1996.**
- **نقولا زيادة: في سبيل البحث عن الله – دار الأهلية للنشر – بيروت –2000.**
- **توماس طومسون – التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي – ت: صالح سوداح – دار بيسان – بيروت1992.**

الفصل الرابع

التوراة في أسفاره الخمسة الأولى
اختلاقات – انتحالات – مغالطات

رأينا في الفصل السابق أن الواقع الإنساني – الاجتماعي في بابل لم يكن يشكّل أرضية لنشوء اعتقادات وأفكار متطرفة وعنصرية واستعلائية ومنغلقة. ومع هذا فحين عمد أحبار المؤسسة الكهنوتية العبرانية إلى كتابة التوراة في أسفاره الخمسة الأولى، تبيّن للباحث أنه أمام كمّ هائل من الوقفات التي ينبغي الوقوف عندها:

***فأولاً*: حوت الأسفار الخمسة الأولى على مغالطات يرفضها العلم الحديث ولا سيما لجهة أن أصل البشر ينبع من آدم. وهذا ما سوف يؤدي حسب المرويات التوراتية في سفر التكوين إلى تقسيم البشرية إلى أعراق وعناصر، يعاكس بعضها بعضاً ويحقد الواحد فيها على الآخر وعليه يمكن مثلاً لسام التوراتي أن يكون سيداً على أخيه حام الذي من سلالته كنعان !**

والغريب أن الأدبيات التاريخية والآثارية التي ينبغي أن ترتكز على الحقائق العلمية، ما زالت تأخذ باصطلاح " السامية " في دراساتها حول تاريخ المشرق العربي.

فقد أجمعت الدراسات الأنثروبولوجية والأثنولوجية على استحالة رد شعب من الشعوب إلى جد واحد.. ونحن نعتقد أن أخذ كتّاب التوراة بمفهوم العنصر كان طبيعياً كون أنهم بقوا على خصائصهم الرعوية القبلية بما يحتم البحث عن جدّ تؤدى له فروض القداسة.

وعليه فلا عجب مثلاً أن نجد في التوراة – سفر التكوين، أن العيلاميين واللوديين أُعتبروا ساميين وما هم بذلك. وأن الكنعانيين عُدّوا من الكاشيين وأن الحثيين من ذرية كنعان أما العموريون فهم حاميون !.

***ثانياً*: إن اختلاق إله أسماه الأحبار" يهوه "، ومنحوه حق وصفهم بأنهم شعب الله المختار وأنه منحهم / منحوا أنفسهم / أرض الميعاد لا يعبّر إلا عن خصائص نفسية مريضة تعتلج في نفسية الأحبار والتي تستند على أحاسيس النبذ والدونية وهذا ما سوف يتم التعويض عنه في مستوى الشعور الجمعي بالاستعلاء والعنصرية والعدوانية وهذه الصفات كانت مقرونة بيهوه في مسار التوراة كونه صناعة المؤسسة الكهنوتية العبرانية.**

***ثالثاً*: حسب التوراة – سفر التكوين ونتيجة للخبرات التي اختزنها الأحبار في كنعان وتالياً الإطلاع على حضارة المشرق الرافدية أثناء السبي، صار لدى هؤلاء ذخيرة معرفية أمكنهم هضمها وبالتالي التلاعب فيها..**

وعلى هذا فلا عجب أن يعيدوا تواجدهم في المشرق العربي لا إلى زمن طروءهم في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، بل سوف يأخذ التوراة وضعاً إرجاعياً حيث سيصادر التاريخ المشرقي لصالح تكريس تواجد عبراني في المشرق يعود إلى/ 1900 /ق.م عبر إبراهيم التوراتي في مدينة أور.

والغريب أن كتّاب التوراة لم يعوا حقيقة التسلسل الزمني والتاريخي. فإن كان ابراهيم التوراتي الذين يتحدرون منه هو " آرامياً تائهاً " كما ورد في سفر التكوين فإن الحقيقة العلمية تقول أن في هذا الزمن لم يكن ثمة تواجد للآراميين في المشرق العربي بما يعطي دليلاً أكيداً على أن كتابة التوراة حصلت في الألف الأول قبل الميلاد. أيضاً ذكر سفر التكوين أن ابراهيم التوراتي كان في مدينة أور الرافدية لكن الحقائق الأثرية والتاريخية تؤكد أن

أور دمرت على يد العيلاميين سنة /2008 /ق.م ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

كما تم وصف مدينة أور بأنها كلدانية والمعلوم أن الكلدانيين يعودون إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد أي زمن تدوين التوراة.

كذلك فإن المشرق العربي مع مطالع الألف الثاني قبل الميلاد / الزمن المفترض لابراهيم التوراتي / كان يعجّ بالمدن والفاعلية الحضارية ولعل وثائق هذه الفترة تتعدى نصف مليون وثيقة مسمارية من كافة مواقع المشرق بحيث أنها لم تشر إلى وجود ابراهيم التوراتي ومغامراته وقصة عبوره إلى فلسطين.

وعلى هذا بتنا نفهم مقولة الباحث" إيسفيليت ": " أن التوراة لم تكن تاريخاً تحول إلى خيال بل خيالاً تحول إلى تاريخ " (1)

أما ماير فيقول: " إن كامل سفر التكوين برواياته عن الآباء والأسلاف / ابراهيم – اسحاق – يعقوب / لبني إسرائيل لا علاقة له بالتاريخ ويجب تصنيفه في زمرة الخيال الأدبي " (2)

وينضم ماك كارتر إلى نقطة متقدمة في الإيضاح في نقده لقصة اختلاق ابراهيم التوراتي والآباء التوراتيين حيث يقول:

" علينا أن نكون حذرين في دراستنا لروايات الآباء التوراتيين، فهذه الروايات إيديولوجيا وليست تاريخاً. لقد صيغت في الألف الأول قبل الميلاد / أثناء السبي / من أجل التأسيس اللاهوتي والسياسي للشعب الإسرائيلي. لهذا لا يمكن التعامل معها كتاريخ بأي معنى من المعاني الحديثة لهذه الكلمة " (3)

ويذكر الهولندي" هوفت جزر" في كتابه " الوعود الإلهية للآباء الثلاثة " :

" إن كل الوعود التي جاءت على لسان ابراهيم واسحاق ويعقوب بالأرض، تعود إلى وقت واحد في عصر متأخر جداً من زمن الآباء / المفترض/. وكانت هذه الوعود تظهر من قبل أحبار اليهود أثناء الأزمات والأخطار التي كانت تهدد وجودهم. ومعظم هذه الروايات كتبت أثناء السبي البابلي " (4).

ومن المغالطات الكبرى في سفر التكوين هو ذكر كتاب التوراة أن الجمل كان موجوداً لدى ابراهيم واسحاق ويعقوب في الزمن المفترض لهم / 1900ق.م /، ولكن من المعروف أن ظهور الجمل واستخدامه لم يحصل إلا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد أي بعد حوالي 700سنة.

ويشير" كاسيدوفسكي " إلى أن الأمانة التاريخية كانت غريبة على كتّاب التوراة، حيث استخدموا الأساطير التي تتوارثها الأجيال / المشرقية / شفهياً كي يثبتوا أن يهوه هو الذي يتحكم بمصير شعبه المختار منذ أيام ابراهيم. ولكن لحسن الحظ / والقول لكاسيدوفسكي / عند العلماء والباحثين أن الكهنة لم يستطيعوا أن يكونوا منطقيين في عملهم التحويري والتحريضي هذا، فقد تركوا في النصوص التوراتية الكثير من التفصيلات التي أعطتها صلة وثيقة مع ثقافة الرافدين.

ويصل للقول: لقد كانت ثقافات السومريين والأكاديين والآشوريين والبابليين هي الأصول القديمة لتلك التفصيلات (5).

رابعاً: اختلاق موسى التوراتي ومعجزاته من زاوية الحقائق العلمية:

ما ينبغي وضعه في نصابه أن لا رابط بين موسى وأسفار التوراة الخمسة الأولى، فهذه الأسفار كتبت بعد زمن موسى الافتراضي بحوالي /600/ سنة.

ولعل الحقيقة الدامغة والتي تعطي دلالة على خلفية ولادة موسى ونشأته في التوراة، تتجلى في قصة شاروكين الأكادي التي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. بما يعطي دلالة على انتحال قصة شاروكين وإسقاطها على موسى التوراتي الذي وُلد في مصر حسب زعم التوراة.

وبغض النظر عن أفكار تميل إلى اعتبار موسى مصرياً اعتماداً على النسق اللغوي، فإن موسى التوراتي لو وضع تحت مجهر التاريخ والحقائق العلمية لتبين أن لا أثر مادياً يدل على وجوده أولاً، وتالياً، تواجده في مصر وثالثاً، خروجه من مصر وتوهان العبرانيين في سيناء لحوالي أربعين عاماً، حيث سيذكر سفر الخروج التوراتي معجزات موسى ومقتل الفرعون / مرنبتاح أثناء ملاحقته لموسى ورجاله /.

يقول توماس طومسون في كتابه " الماضي الخرافي – التوراة والتاريخ ":

" لقد بات واضحاً الآن أن الثقة السابقة في وجهة النظر القائلة بأن كتاب التوراة هو وثيقة تاريخية هي في طور الانهيار. فقد تم التعبير عن الشك الواسع الانتشار ليس فقط حول تاريخية آباء سفر التكوين بل تاريخية القصص حول موسى ويشوع والقضاة أيضاً ".

وقد شعر هؤلاء المؤرخون بالثقة لأول مرة في التكلم على التاريخ عند معالجة عهد شاؤل وداود وسليمان (6). أما زينون كاسيدوفسكي فيشير إلى مسألة الخروج من مصر وموسى بقوله:

" إننا لا نستطيع أن نذكر واقعة هروب موسى وقومه من مصر لأن الوثائق المصرية وغيرها من المصادر الأخرى لا تشير إلى تلك الأحداث قط " (7).

ويشير الباحث "سارنا " sarna في معرض نفيه لأسطورة الخروج من مصر:

" إن خلاصة البحث الأكاديمي حول مسألة تاريخية قصة الخروج، تشير إلى أن الرواية التوراتية تقف وحيدة دون سند من شاهد خارجي، كما أنها مليئة بالتعقيدات الداخلية التي يصعب حلها. كل هذا لا يساعدنا على وضع أحداث هذه القصة ضمن إطار تاريخي. يضاف إلى ذلك أن النص التوراتي يحتم محددات داخلية ذاتية ناشئة عن مقاصد وأهداف المؤلفين التوراتيين، فهؤلاء لم يكونوا يكتبون تاريخاً وإنما يعملون على إيراد تفسيرات لاهوتية لأحداث تاريخية منتقاة. وقد تمت صياغة هذه الروايات بما يتلاءم مع هذه المقاصد والأهداف. ومن هنا فإننا يجب أن نقرأها ونستخدمها تبعاً لذلك.

إننا نفتقد إلى المصادر الخارجية التي تذكر عن تجربة الإسرائيليين في مصر أو تشير إليها بشكل مباشر والشواهد الموضوعية الواضحة على تاريخية النص التوراتي مفقودة تماماً بما في ذلك نتائج التنقيب الأثري ". (8)

كما أن الباحثة البريطانية " كاثلين كينيون "* تنفي وفق المعطيات الأثرية دخول أقوام جديدة إلى فلسطين في فترة بين عصر البرونز الأخير وعصر الحديد حيث تقول:

" لا يوجد في هذه الفترة تغيير حضاري يشير إلى حلول أقدام جديدة في فلسطين سواء في المناطق الهضبية أو غيرها ".(9)

إذن نصل من كل هذا إلى القول أن الحقائق الأثرية والتاريخية تنفي بشكل جازم سفر الخروج التوراتي بحيث أن الأدلة الأثرية فندت :

- **وجوداً عبرانياً في مصر وبالتالي وجود شخص اسمه موسى يقودهم.**
- **هجرة العبرانيين من مصر إلى بلاد كنعان عبر سيناء.**
- **دخول العبرانيين التائهين في سيناء إلى بلاد كنعان ولاسيما عبر غزو عسكري.**

ونعود للقول أن العبرانيين الذي طرأوا على بلاد كنعان نعتقد أنهم جماعات مرتحلة بدوية كانت تجول في قفار شمال الجزيرة العربية وأطراف بلاد كنعان وقد جذبتها معالم الحضارة الكنعانية فدخلت إلى بلاد كنعان بشكل تدريجي وغير منظم واستوطنت في المناطق الهضبية الفارغة على أطراف المدن الكنعانية. ولا بأس هنا من مناقشة ما ورد في سفر الخروج لجهة المغالطات التي فندها العلم الحديث فيما يختص بمعجزات موسى التوراتي:

*** الجدير ذكره هنا، هو أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي طردت هذه الباحثة من " إسرائيل " عام 1967 نتيجة لانحيازها إلى ضفة الحقائق العلمية الآثارية في مواجهة المدرسة التوراتية الآثارية.**

فقد جاء في سفر الخروج أن موسى التوراتي أخرج من مصر 600 ألفاً من المهاجرين الإسرائيليين عدا الأطفال والنساء، بمعنى آخر فإن العدد الكامل ربما بلغ مليوني نسمة تقريباً.

لكن دراسة علمية قام بها الباحث التشيكي " ألويس موزيل " المختص في شؤون العيش في الصحراء أوضحت أن القبيلة التي تتألف من / 5000 /عائلة تشكل أثناء سيرها خطاً عرضه حوالي 20 كم وطوله أكثر من ثلاثة كيلو مترات.

وعلى هذا يرى أن واحات شبه جزيرة سيناء بقادرة على أن تطعم مليوني إسرائيلي هو افتراض غير واقعي.

وأما رواية التوراة بأن ذلك العدد الكبير عاش في معسكر واحد فهي رواية بعيدة عن المعقول البعد كله.

يروي التوراة أيضاً أن موسى روى للعبرانيين كيف كلّمه الله / يهوه / من العليقة الملتهبة التي لا تحترق. ولكن الدراسات العلمية والعملية أكدت أن هذا النبات موجود فعلاً إلى الآن في سيناء ويسمى عليقة موسى. وتبين أن هذه الشجرة عبارة عن نبات ذي خصائص فريدة يرسل خيوطاً من الزيت في الأثير بحيث تتوهج بسهولة تحت أشعة الشمس.

وقد أخذ بعض العلماء نموذجاً من هذه العليقة إلى بولونيا وزرعوه في محمية، حيث ذكرت الصحف عام / 1960/م أن عليقة موسى اشتعلت في أحد الأيام القائظة ناراً ذات لون أحمر سماوي.

أيضاً ثمة حكاية في التوراة وردت على شكل معجزة حيث أن المنّ ظهر للعبرانيين كمعجزة من يهوه وموسى. والذي تبين بنتيجة دراسات

الباحث بودينسهايمر في شبه جزيرة سيناء أن ثمة نوعاً من الأثل يفرز في الربيع سائلاً حلو المذاق سرعان ما يجف ويتحول إلى كرات بيضاء تشبه حبات البَرَد فور تعرضه للهواء، ولاحظ هذا الباحث أن بدو سيناء يهرعون في الربيع لالتقاط هذه الحبات التي لم تكن نتيجة معجزة لموسى ويهوه.

ومن ظرائف سفر الخروج أيضاً قصة طيور السلوى أو السمّان، حيث ثمة معجزة للقوم التائهين بأن جلب موسى لهم عبر يهوه هذه الطيور ليأكلونها وبأعداد كبيرة.

والذي تبين وفق الدراسات العلمية والعملية أن هذه الطيور ترحل من أعماق أفريقيا إلى أوروبا في فصل الربيع وبأعداد هائلة حيث تصل في طريقها إلى سيناء وقد أنهكها الطيران فتحط عادة على طول ساحل البحر خائرة القوى لدرجة أن السكان المحليين يلتقطونها بأيديهم دون استخدام أي وسيلة للصيد. بمعنى آخر أن هذه الظاهرة طبيعية ولا علاقة للمعجزات النبوية أو الإلهية بها.

وثمة معجزة توراتية أخرى تجلت في موسى حين جاع شعبه فضرب صخرة بعصاته عند سفح جبل حوريب لتنبثق المياه العذبة للشرب. وقد تبين بنتيجة دراسة هذه الظاهرة أن سكان المنطقة البدو ما زالوا يقومون بهذا الأمر إلى الآن في المنطقة فهم يعرفون أن مياه الأمطار تتجمع عند سفوح الجبال تحت شريط رملي هش يكفي أن تكسر هذه القشرة الرقيقة حتى تنبجس المياه دون معجزات إلهية أيضاً.

وعلى جري هذه المعجزات فقد ورد في التوراة أن الإسرائيليين وصلوا إلى "مارّة " بعد ثلاثة أيام من المسير في الصحراء دون مياه وشرب حيث

خاب أملهم في الحصول على مياه عذبة بحيث أن مياه النبع في هذه المنطقة كانت مرّة المذاق.

وبمعجزة من موسى التوراتي الذي تناول غصن شجرة ورماه في المياه فأصبحت المياه عذبة وحلوة. لكن العلماء البريطانيون الذين درسوا هذا الأمر توصلوا إلى أن هذه المياه المرة تحتوي نسبة من كبريتات الكالسيوم وحين أضافوا إليها حامض الأكساليك ترسبت الكبريتات وفقدت المياه طعمها المر. في حين لاحظوا أن سكان المنطقة كانوا يتخلصون من المرارة بمساعدة أغصان شجرة معينة تسمى ألواح يحتوي عصيرها على حامض الأكساليك.

كما يذكر التوراة أن العبرانيين في طريقهم من جبل سيناء إلى قادش عانوا من نقص الغذاء ما أدى إلى وقوع اضطرابات وقلاقل واحتجاجات لكن غضب موسى ويهوه منهم دفعه إلى الانتقام منهم حيث أكلوا طيور السمّان/ السلوى فمات الكثير منهم كنوع من عقاب يهوه لهم وغضب موسى عليهم.

لكن الأبحاث العلمية دلت على أن هذه الطيور كما توصل البروفسور سرجان كانت تصبح سامة في بعض الأحيان في شبه جزيرة سيناء نتيجة أنه وفي طريقها من أفريقيا إلى أوروبا تمر في السودان وتحط هناك وتأكل حبوباً تحوي مواداً سامة مما يجعل لحومها خطرة على حياة الإنسان.

وأيضاً تذكر أساطير الخروج الهوامية أن الأفاعي السامة بين قادش وخليج العقبة هاجمت العبرانيين.. ولكن تبين أيضاً للرحالة السويسري بورغهات عند زيارته لسيناء أن ثمة هذه المنطقة التي تعج بالأفاعي السامة وكان البدو المحليين يتجاوزون هذه المنطقة أثناء تجوالهم.(10)

وفي النتيجة يمكن النظر إلى أن ما كتبه الأحبار في سفر الخروج لا يعدو كونه حكايا وخبرات اختزنوها أثناء تجوال العبرانيين بين شمال الجزيرة العربية وسيناء وأطراف كنعان بحيث أسدلوا عليها رداءاً إلهياً وأسقطوها على شخصية مفترضة هي موسى الذي جعلوه نبياً كتب الأسفار الخمسة الأولى من التوراة.

والغريب أن يرد في سفر التثنية / الإصحاح الرابع والثلاثين – السطر العاشر / أنه " لم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى ". ولكن الحقائق العلمية تؤكد أن كلمة " نبي " لم تدخل قاموس اللغة اليهودية القديمة إلا في زمن متأخر جداً عن عهد موسى المفترض في التوراة !.

إن كل هذا يدفع الباحث كاسيدوفسكي للقول:

" إن مجرد القراءة السطحية للأسفار الخمسة الأولى تبين هشاشة الأساس الذي قامت عليه أسطورة كتابة موسى لهذه الأسفار " (11).

الجدير ذكره هنا هو أن التقليد الديني في أوروبا أكد طوال قرون طويلة أن موسى هو مؤلف الكتب الخمسة الأولى من التوراة، ولكن عندما تجرأ الفيلسوف اليهودي سبينوزا (1632–1677)م وأعلن عن شكّه في صحة ذلك التقليد تم طرده من الكنيسة / أمستردام / وأعلنته هرطقياً. وقد سبق سبينوزا إلى هذا الكثير من الفلاسفة والعلماء أمثال: فيلون ويوسف فلافي وابن عزرا وأوريل وداكوست وغيرهم.

إذن نصل من مناقشتنا إلى سفر الخروج التوراتي إلى أن ما جاء فيه ليس إلا هواماً أكدته معطيات علم الآثار والتاريخ بالإضافة إلى نفي لكل تواجد عبراني في مصر بزعامة موسى ومن ثم هجرتهم عبر سيناء إلى بلاد كنعان ودخولها غازين ومدمرين.

يقول الباحث الهولندي " هـ.فرانكين ":

" إذا وضعنا النص التوراتي جانباً، فإن علم الآثار لم يتوفر لديه سبب واحد يدفعه للقول بوصول شعب جديد إلى فلسطين تحول إلى أمة مع نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد، حيث أنه من المتعذر على تقنيات علم الآثار أن تكتشف الشواهد على وصول جماعات إثنية جديدة إلى مكان جغرافي ما إذا لم تترك هذه الجماعات مخلفات مادية تدل عليها، متميزة عن المخلفات المادية للجماعات الأصلية التي حلت بينها أو حلت محلها. وهذا لم نستطع التوصل إليه فيما يتعلق بالجماعات العبرانية " (12).

وينفي بدوره وليم ديفر روايات الآباء والخروج ويشوع حيث يقول:

" إننا لا نستطيع اليوم أن نبحث عن التاريخ في روايات الآباء والخروج ويشوع. وبصورة خاصة فإن إثبات الفتح العسكري لأرض كنعان / كما ورد في سفر يشوع / قد غدا مجهولاً لا طائل منه بعد أن جاءت كل الشواهد الأثرية مناقضة له ".(13)

الجدير ذكره هنا هو أن سفر يشوع يتحدث عن اقتحام عسكري لبلاد كنعان من قبل العبرانيين، في حين أن سفر القضاة يتحدث عن دخول سلمي لهم إلى كنعان.

خامساً: مملكة داود وسليمان: (المملكة الموحدة)

إذا ما تحرينا المرويات التوراتية / أسفار صموئيل / سنجد أن الفترة بين حوالي/ 1000– 600 /ق.م تم وصفها على أنها العصر الذهبي لإسرائيل بعاصمتها أورشليم. وقدمت هذه الأسفار وضعاً مغالياً ومبالغاً فيه لوضع العبرانيين الطارئين كبداة إلى فلسطين، حيث عمد كتّاب التوراة إلى

وصف مملكة شاؤل وسليمان وداود على أنها ذات فاعلية سياسية تسيطر على المنطقة بين النيل والفرات، كذلك قصة هيكل سليمان الذي قُدم وكأنه من عجائب الدنيا السبع.

لا بل وأن سفر الملوك الثاني وسفر الأخبار الأُول يأتي على ذكر أن سليمان بنى " تدمر" في البرية !.. والحقيقة أن الخط الذي يحكم التوراة إن كان بأسفاره الخمسة الأولى أو أسفاره الأخرى لا يقدم سوى الدليل على المبالغات والاختلاقات التي توحي وتؤكد على مبلغ المستوى والسوية الأولية التي كان عليها المجموع العبراني في فلسطين.

يقول الباحث الفرنسي " بيير روسي ":

" إن التاريخ المصنوع للعبرانين خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق. فلا الكتابات المنقوشة على الآثار ولا القوانين ولا الدساتير تكشف أثراً قليلاً للعبرانيين. فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية أو مكتبة أوغاريت أو نينوى، وحتى في النقوش الآرامية. في ذلك كله لا تذكر كلمة عبري وأشهر ملوك التوراة هما داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية.

ليس هناك أبداً ذكر للملحمة والوقائع الحربية المعزّوة لعبور العبرانيين. فالعدم كامل، مثلما هو قطعي وجازم ".(14)

بعد هذا، حريّ بنا مثلاً أن نلاحظ أن شيخ القبيلة العبرانية / وليس الملك / شاؤول والذي ألصق به التوراة في حوالي / 1020 /ق.م صفة شيخ بدوي في خيمة قرب بلدة جبعة شمال القدس.. سوف يكون في حوالي/932/ ق.م بانياً للمدن المسوّرة والهياكل الضخمة حسب التوراة، علماً أن هذه الفترة كانت تشهد تشرذم هذه القبائل وتفتتها.

وبدوره الباحث لينش يشكك في وجود المملكة العبرانية لداود وسليمان حيث يقول:

" إنني شخصياً أجد هذه الأفكار غير قابلة للتصديق إلى حد بعيد، حيث لا توجد أي آثار تدل على وجود سليمان وداود أو حدوث أي من الأحداث المرتبطة به " (15).

وإذا كان كتّاب التوراة قد قدموا على أن هذه الفترة هي فترة تبلور الشخصية العبرانية والدولة العبرانية في فلسطين فإن العالم " ليمكه " يؤكد وفقاً لكافة التحريات والتنقيبات الأثرية التي جرت في فلسطين، انعدام حدوث هجرة مركزية عبرانية إلى فلسطين وتالياً " أنه لا شيء في السجل الآثاري يؤكد وجود كينونة اسمها إسرائيل " (16).

ويناقش توماس طومسون في كتابه " التوراة والتاريخ – الماضي الخرافي " مرويات المملكة العبرانية لداود وسليمان، بحيث يقول: " أن تلك الصور/ التوراتية / لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي، إننا نعرفها فقط كقصة وما نعرفه حول هذه القصص لا يشجعنا على معاملتها كما لو أنها تاريخية. ولا يتوافر دليل على وجود ملكية متحدة، ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم أو على وجود أي قوة سياسية موحدة ومتماسكة هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصنعه الحكايات الأسطورية. ولا يوجد أي دليل على وجود ملوك يدعون شاؤول وداود وسليمان " (17).

إذن تجاه كل هذه المرويات حول مملكة داود وسليمان، حول عظمة أورشليم، وحول الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، نجد أن علم الآثار قد ساهم بمعول التنقيب في هدم أساسات هذه المرويات المختلقة. وهذا ما

دفع بالباحثة والمنقبة " مارغريت شتاينر" بعد أن أجرت دراساتها على اللقى الأثرية في موقع أورشليم للقول: " لم يكن / للملك / داود مدينة ليعمرها في مطلع القرن العاشر ويجعلها عاصمة للمملكة الموحدة، لأن مثل هذه المدينة لم تكن موجودة في ذلك الزمن. كما أن الوصف الذي نجده في أسفار التوراة لمدينة أورشليم لا ينطبق إلا على مدينة القرن السابع " (18).

إذن نصل من كل هذا إلى عدة استنتاجات:

***أولها*: انعدام كلي لوجود داود وسليمان في الوثائق واللقى والأدلة الأثرية الأخرى.**

***ثانيها*: انعدام كلي وكامل لوجود مملكة عبرانية موحدة شملت بفاعليتها التاريخية المنطقة ما بين النيل والفرات. وهذا ما سوف يتم التأكيد عليه في فصل المؤرخون الجدد في إسرائيل حيث يعطي ويؤكد بقوة أن مرويات التوراة جديرة بأن توضع على رفّ الروايات والقصص الخيالية.**

ألم يقل توماس طومسون:

" باختصار، إن إسرائيل التاريخية الوحيدة التي يمكن الحديث عنها هي شعب دولة المرتفعات الصغيرة التي فقدت حكمها الذاتي السياسي في الربع الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد "

ويضيف: " لا يوجد متسع لملكية متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاؤول وداود وسليمان.

إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبداً " (19)

ثبت المراجع والهوامش:

1 – محمد وحيد خياطة – محاضرة – اللاسامية – العداء الأبدي لليهود.

2 – المرجع السابق.

3 – المرجع السابق.

4 – المرجع السابق.

5 – زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.

6 – توماس طومسون – الماضي الخرافي – مرجع سابق.

7 – زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.

8 – N.M SARANA. ISRAEL IN EGYPT.

9 – K..ENYON. ARCHAEOLOGY IN THE HOLYLAND.

10 – زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.

11 – المرجع السابق.

12 – 1975-THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY.

13 – BIBLICAL ARCHAEOLOGY REVIEW 1997-(7-8)

14 – بيير روسي – مرجع سابق.

15 – LENCHE, N.P.EARLY,ISRAEL, VENTUS TESTAMENT SUPLEMENT. LEIDEN1985

16 – فراس السواح – آرام دمشق وإسرائيل – دار علاء الدين1995.

17 – توماس طومسون – الماضي الخرافي – التوراة والتاريخ – مرجع سابق.

MARGRET STEINER. BIBLICAL ARCHAEOLOGY-18 REVIEW 1998 (6-8)

19 – توماس طومسون – مرجع سابق.

مراجع البحث الأخرى:

- **توماس طومسون – التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي – ت: صالح سوداح – دار بيسان – بيروت1992.**
- **سبتينو موسكاتي – الحضارات السامية القديمة – ت: السيد يعقوب بكر – دار الرقي – بيروت1986.**
- **جان بوتيرو – بابل والكتاب المقدس – مرجع سابق.**
- **صموئيل هوك – ديانة بابل وآشور – ت: نهاد خياطة – دار العربي – دمشق1987.**
- **الجديد حول المشرق القديم – مجموعة باحثين – مرجع سابق.**
- **حياة ابراهيم محمد – نبوخذ نصر الثاني – وزارة الثقافة العراقية1983.**
- **توفيق سليمان – دراسات حضارات غرب آسيا القديمة – دار دمشق1985.**

الفصل الخامس

انتحالات التوراة من تراث المشرق العربي القديم

ذكرنا سابقاً أن التواجد العبراني في بلاد كنعان كان طارئاً وقد حددته الدراسات والبحوث بين فترة/ 1040–932 /ق.م بحيث كانت هذه المجموعات على درجة أولية من الثقافة بحيث استوطنت منطقة الهضاب المركزية الفارغة من السكان، وأشادت بلداتها البسيطة المتناسبة مع ثقافتها الرعوية وشبه الثقافة الزراعية في مراحلها البسيطة.

وذكرنا أن هذا التواجد الهزيل / حضارياً / أكدته الدراسات الأثرية التي شككت في إمكانية وجود فاعل في فترة طروء العبرانيين إلى بلاد كنعان الجنوبية.

فإن كان تعداد هؤلاء حين طرأوا على بلاد كنعان لا يتعدى عشرة آلاف نسمة فإن الباحث " ماك إيندي جونز " توصل لدى قيامه بأبحاثه إلى أن عدد سكان مصر في هذه الفترة كان يتعدى ثلاثة ملايين نسمة أما في فلسطين وشرقي الأردن فوصل إلى نصف مليون نسمة وفي الرافدين ما ينوف على المليوني نسمة أما في الشام والساحل السوري فيزيد على المليون نسمة. (1)

إن هذا الإحصاء يطرح هزالة العديد العبراني مقابل عدد السكان في المشرق العربي ومصر، وعلى هذا نفهم مقولة " جان بوتيرو " من أن:

" الإسرائيليون ذلك الشعب المجهري، بالمقارنة مع عملاق الرافدين، الذين لم يكن لهم وجود يذكر على المسرح السياسي.. وعلى المستوى الثقافي كان الإسرائيليون مدينون بالكثير الكثير لسابقيهم وجيرانهم حيث أنهم لم يخترعوا شيئاً، كما ولم يقدموا للعالم شيئاً " (2)

والحقيقة التي تفرض نفسها هنا، حين مناقشة أن العبرانيين لم يقدموا شيئاً للحضارة الإنسانية، فإن مطلق منجز حضاري كي ينبثق، ينبغي أن تتوفر عدة شروط له:

***أولها*: العمق الحضاري في التفاعل مع المكان، بمعنى آخر وجود بيئة اجتماعية متفاعلة مع البيئة الطبيعية والوسط المحيط.**

***ثانيها*: العمق الحضاري في التفاعل مع الزمن، بمعنى وجود بُعد زماني يخّصب الخبرة التفاعلية الاجتماعية من جهة والتفاعلية الاجتماعية مع البيئة والمحيط من جهة أخرى.**

وكلا هذين العاملين افتقدهما العبرانيون عبر الزمن.

***ثالثها*: الأخذ بمفاهيم الانفتاح والتمازج والتفاعل مع الآخر، حيث أن الثقافة العبرانية المستندة على الكهنوت المنغلق للتوارة والتلمود سعت إلى تعميم ثقافة الفيتو التي حتمت وجود قطيعة بين المجموع العبراني والمحيط وعلى مدى التاريخ.**

ولا بأس أن نلاحظ في مساق التاريخ أن كل فرد يهودي استطاع أن يفعل ويقدم شيئاً للإنسانية لم يكن انعكاساً لمجتمعه بقدر ما كان الأمر انعكاساً للانفتاح على المجتمعات الأخرى وهذا ما يمكن إثباته في اسبنيوزا وآينشتاين وكارل ماركس وغيرهم.

بحيث أنهم تجاوزوا ثقافة الغيتو التوراتية إلى العالم الأرحب والأوسع حيث التفاعل والتمازج مع الآخر.

بناء على كل هذا خلا الحضور العبراني على الأرض وفي التاريخ البشري من أي منجز إنساني أو اختراع، سوى اختراع انتحالات من تراثات

الشعوب الأخرى وإلصاقها بهم وهذا ما حصل لدى كتابة التوراة في الألف الأول قبل الميلاد في بابل إبان السبي البابلي.

ولعل جملة الخبرات والمعاينات التي قام بها الأحبار العبرانيون أثناء تواجدهم في بلاد كنعان ولفترة حوالي مئة سنة، بحيث نهلوا وخبروا ثقافة بلاد كنعان الموغلة في القدم، سواء لجهة العمائر والمدن والتشريع والحياة الحقوقية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية إلى ما هنالك، ثم ونتيجة للخبرات التي امتصوها خلال تواجدهم في بابل إبان السبي ولمدة 50 عاماً. جعلتهم يهضمون كامل المنجز الكنعاني وكذلك الرافدي، ثم سوف يعيدون صياغة كل هذه الخبرات بما يناسب تصوراتهم وأهدافهم السلبية على الصعيد الإنساني لهذا جاء التوراة في أسفاره الخمسة الأولى يحمل من الاختلاقات والانتحالات والأكاذيب ما يفوق الوصف.

يقول الباحث الفرنسي " جان لوي برنار":

" إننا نتحسس كل التحسس أن الأحبار اليهود قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها، بعض الحكايات فعبرنوا كل المعلومات. ولكن لماذا هذه اللصوصية؛ إن الغرض منها تلفيق أكذب تاريخ للعالم يثير أعظم ضجة فيه وكل ذلك اختراع ملفقة الشعب اليهودي المختار " (3)

أما المؤرخ ويلز فيقول في كتابه معالم الإنسانية:

" إن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا متمدنين. ذهبوا وليس لهم أدب معروف، وعادوا ومعهم الشطر الأكبر من مادة التوراة بعد أن عاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي " (4)

ويقارب جان بوتيرو في كتابه بابل والتوراة ما كنا أشرنا إليه حيث يقول:

" يعطينا علم الآشوريات / الكتابات المسمارية / عن التوراة ليس إدراكاً مباشراً، بل إدراكاً قياسياً وغير مباشر. يقدم لنا معطيات في حالة أخرى وصياغة أخرى وإعداد آخر، اجترّها تاريخ إسرائيل ومؤلفو التوراة على نحو عميق وتمثلوها بعد أن علموا بأمرها وربما حملوها وقضوا بأنها مفيدة بمجرد تآلفها مع رؤيتهم وحساسيتهم الخاصة " (5)

الجدير ذكره هنا هو أن هذا العالم ولأنه انحاز إلى ضفة العلم والحقائق الموضوعية فقد تم إقصائه من الكنسية الدومينيكية وما تبع ذلك من انتقاله إلى مراكز علمية أخرى. وهذا يذكر بما حصل مع إسبنيوزا اليهودي ومع توماس طومسون حين نشر كتابه التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي حيث تم طرده من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية.

وهنا يحضرنا أن نذكر في موقف لافت أن الباحث الفرنسي جان بوتيرو والذي بدأ دراسته بدراسة التوراة كدافع من الكنيسة ثم وحين صار عالماً في الكتابات المسمارية المشرقية أدلى بموقف مهم يعطي دلالة على الخاصية الإنسانية والحضارية لمجتمع المشرق العربي في مواجهة ثقافة الانعزال والتقوقع والعدوانية العبرانية.

يقول بوتيرو:

" هناك نقطة ما زلت أتمسك بها.. أن علم الآشوريات يملك امتيازاً عظيماً جداً وثميناً جداً. لقد جعلني عاجزاً عن إيذاء أي كان في العالم، عن إزعاج أي كان، عن تعكير صفو أحد. ألا يعتبر ذلك في هذه الأوقات امتيازاً مدهشاً وشديد الندرة. لقد حيدني علم الآشوريات وجعلني جذرياً، غير مؤذ، لذا تمسكت به وما زلت مثابراً " (6)

انتحالات التوراة من التراث المشرقي الكنعاني:

بداءة، ينبغي التأكيد على أن العبرانيين حين أتوا بلاد كنعان انتحلوا لغتهم واستخدموها وهذا ما وثقوه هم بأنفسهم حين جاء في توراتهم أنهم تكلموا شفة كنعان.

أما لجهة كتابة التوراة فقد كتبت بالآرامية المشرقية / الخط الآرامي المربع / ولم يجر تنقيط التوراة إلا في القرن العاشر الميلادي بتأثير من المدرسة العبرية في العصر الأندلسي. وتم ذلك بتأثير مما كان موجوداً في العربية هذه التي استمدت تنقيطها من السريانية (د.محمد محفل 1991).

وإن كانت الأبحاث تذكر على أن التوارة ثُبت في القرن الرابع الميلادي، فإن هذا لم يتحقق حيث يذكر الدكتور محمد محفل من أن ما ورد في سفر أشعيا من أن اليهود تكلموا " شفة كنعان " أي لغة كنعان، جرى تزويره وتحويره. ففي عام 1976 ميلادي أصدرت جمعية التوراة الأمريكية طبعة جديدة للتوراة جرى فيها تحوير هذه الجملة إلى " تكلموا اللغة العبرية " وذلك في محاولة لتصحيح أخطاء الأحبار وكتّاب التوراة. (7)

وقد وصف كاسيدوفسكي في كتابه الواقع والأسطورة في التوراة أن الأمانة التاريخية كانت غريبة على كتاب التوراة، حيث استخدموا الأساطير التي توارثتها الأجيال في المشرق شفهياً كي يثبتوا أن يهوه هو الذي يتحكم بمصير شعبه المختار. (8)

والشيء الآخر الذي ينبغي ذكره هو أن المرجل الحضاري الكنعاني وعبر تاريخه كان يشكّل بوتقة تفاعل وتمازج مع أي أرومة تدخل بلاد كنعان، وليس أدل مع ذلك من اندخال وتفاعل الشعب الفلستي /من شعوب

البحر، وهم الغزاة/ في صميم التفاعل الديمغرافي الحضاري بما أدى إلى اعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من النسيج الحضاري الكنعاني.

وعلى هذا فإن فرصة الاحتكاك التي أوجدها طروء العبرانيين في بلاد كنعان مع الواقع الاجتماعي الكنعاني كان يمكن أن تشكل نقطة مضيئة في تاريخ هذه الجماعة العبرانية وهو ما تحقق أحياناً في ما أبداه الأفراد العبرانيون من تفاعل سواء عبر الاعتقاد بآلهة كنعان أو الزواج من غير العبرانيين. ولكن تدخل أحبار المؤسسة الكهنوتية بشكل عنصري ومنغلق أدى إلى معاكسة التيار التمازجي والتفاعلي وهذا ما هو موثق بعد السبي حين عمد عزرا الكاهن عبر سِفره / سفر عزرا / من منع حصول التفاعل بين العبرانيين والمحيط الاجتماعي لهم لا بل وضرورة فصل عرى العائلات المختلطة في الزواج عبر تطليق النساء غير العبرانيات وإبعادهن هن وأولادهن عن الرجل/الزوج/ العبراني في اتجاه للحفاظ على نقاء العرق ! والدين !.

وعلى هذا نفهم قول " فيليب حتّي " من أن العبرانيين كانوا الشعب الوحيد من الشعوب القديمة الذي أنشأ شعوراً قومياً متطرفاً.

والآن لنحاول رصد الانتحالات التي أخذها كتّاب التوراة عن التراث المشرقي الكنعاني مع الإشارة إلى أن هذه الانتحالات كثيرة جداً وسبق أن نوقشت في كتب عديدة منها كتاب الدكتور" أحمد سوسه ": العرب واليهود في التاريخ بالإضافة إلى كتب الدكتور " جرجي كنعان " والأستاذ "مفيد عرنوق" وغيرهم.

غير أننا هنا سوف نشير إلى انتحالات ربما لم تحصل الإضاءة عليها بشكل كبير أو أن الاكتشافات الأثرية ولا سيما قراءة الوثائق المسمارية

حديثاً قدمت ذخيرة لكشف الانتحالات وحتى المغالطات وكذلك معالم التحوير التي تبدت في حقد الأحبار العبرانيين على كل ما هو كنعاني ومشرقي.

يقول جان بوتيرو " أنه وبالحقيقة وفي مجال التقدم الفكري والمادي على السواء، أخذ بنو إسرائيل كل شيء وتعلموا كل شيء من الكنعانيين بما في ذلك لغتهم ". (10)

والحقيقة أن اكتشاف مدينة أوغاريت عام /1929/ م ومن ثم وثائقها قدّم معطيات تؤكد مبلغ الانتحال الذي قام به أحبار المؤسسة الكهنوتية العبرانية.

يهوه:

يروي التوراة عن أن موسى التوراتي بعد أن فرّ من مصر بعد قتله لرجل مصري، وصل إلى قبيلة عربية هي قبيلة مديان حيث تزوج ابنة كاهن القبيلة وأخذ في عبادة إله هذه القبيلة الذي هو إله البراكين والصحراء !.

وإن نكن حذرين في تبني هذه القصة المختلقة، حيث تبين لنا أن لا تواجد عبراني في مصر ولا خروج من مصر وتيه في سيناء. فإن ما يهمنا في هذا السياق هو أنه حتى في حال أن موسى التوراتي أخذ الإله من القبيلة العربية لكن الذي جرى هو إسباغ الخصائص النفسية السلبية للأحبار على هذا الإله، لهذا سنجده في التوراة إلهاً متعطشاً للدماء، بطاش، وعنصري، تماماً كما عبّرت خافية الأحبار عن خصائصها.

وفي هذا المجال يذكر ول ديورانت أن اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان وصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها وجعلوا منه إلهاً ذا نزعة

حربية، صلب المراس. ويذكر في كتابه الضخم " قصة الحضارة " أن اللقى الأثرية التي ظهرت في كنعان عام/ 1931 /م كان منها بعض القطع الخزفية التي تعود إلى 3000 قبل الميلاد عليها اسم الإله الكنعاني يهوه أو ياه. (11)

أما سبتينو موسكاتي فيذكر أن الإله يهوه كان معروفاً عند العرب وأن الناس كانوا يلحقون أسمائهم باسمه تبركاً به. (12)

ونشير في هذا المجال إلى ما أورده فريدريك ديليتش في كتابه " بابل والكتاب المقدس" حيث يذكر فيه:

" حصلت بفضل مدير القسم المصري – الآشوري التابع للمتحف البريطاني على صورة ثلاثة ألواح طينية / رقيمات /.. وسوف تسألون: ماذا نستطيع أن نرى على هذه الألواح المصنوعة من الطين الهش بل المكسور وعليها خط منقوش غير واضح ؟ صحيح، ولكنها ذات قيمة كبيرة أولاً للتأكد من التاريخ الذي تعود إليه وهو عصر حمورابي وأحدها من فترة حكم أبيه سن موباليط. وثانياً للأهمية الكبرى التي تستمدها من ثلاثة أسماء مكتوب عليها والتي لها أهمية كبرى بالنسبة إلى التاريخ الديني وهذه الأسماء هي: " يهوه هو الله " (13) .

<u>عبادة العجل الذهبي:</u>

من المعلوم أن الشأن الاعتباري للثور وهو ما اصطلح على تسميته عبادة الثور، كان منتشراً في المشرق العربي منذ العصور الحجرية ولا سيما العصر الحجري الحديث وهذا الشأن الاعتقادي بقي منتشراً في العصور

اللاحقة حيث نستطيع أن نوثقه في العصور التاريخية وفي نقوش الملاحم والأساطير المختلفة ولا سيما في أسطورة جلجامش.

ومن الطبيعي أن ينتشر هذا الأمر على مدى الوحدة الحضارية المشرقية بحيث أن الكنعانيين ذوي الثقافة الزراعية كان ينتشر هذا الاعتقاد لديهم.

والذي تبدى هو أن العبرانيين أخذوا هذا الشأن الاعتباري عن الكنعانيين مع ملاحظة أن هذا الأمر الاعتقادي بالثور لدى مجتمع المشرق العربي كان ذا مدلول خصبي يستند على ذهنية زراعية في حين أن عبادة العجل لدى العبرانيين أخذت سمات النمط الرعوي القبلي فأعطت انطباعاً عن عبادة حسية مبتذلة ورخيصة. وقد أكد كاسيدوفسكي هذا الأمر بقوله أن هذه العبادة لدى اليهود لا يمكن أن نستثني التأثير الكنعاني منها. (14)

وفي حوارات لنا مع الباحثة " هيلنا زيدن " ذكرت أن الإسرائيليين إلى الآن إذا عثروا على لقى أثرية في فلسطين تختص بالثور فإنهم يصنفونها على أنها آثار يهودية. وتضيف: رغم أن الثور المقدس كان ذا شأن في اعتقادات مجتمعات المشرق العربي القديم.(15)

وقد قدمت معطيات الثقافة الأوغاريتية ووثائقها المزيد من الانتحالات لتراث المشرق العربي.

فمثلاً أن المزمور الثامن والعشرين في التوراة يعطي تأكيداً على آثار النشيد الأوغاريتي وهذا يشير إلى التطابق المدهش في الأفكار العامة وتسمية الأماكن السورية المذكورة هناك، ثم يتبدى هذا الأمر في تأثير اللغة الأوغاريتية نفسها.

ولعل الأسفار الثاني عشر وحتى الخامس عشر الواردة في الإصحاح الخامس عشر من سفر اشعيا تعبّر عن اقتباس حرفي من الملحمة الأوغاريتية. (16)

أيضاً يمكننا رصد الأمثال والأقوال التوراتية المنتحلة عن الأصول الكنعانية.

ولعل المؤرخ البريطاني " أرنولد توينبي " يقارب هذه المسألة فيشير إلى أن الأعياد الخاصة بالسنة الطقسية اليهودية يفترض أنها تحييّ أحداثاً في تاريخ اليهود. إلا أن هذه الأعياد تحمل في طياتها أنها كانت أصلاً احتفالات لمواسم زراعية عند السوريين. (17)

وتقدم التوراة على أن سليمان التوراتي ألّف حوالي ألف نشيد وثلاثة آلاف مَثَل. ولكن تبين أن معظم بل جلّ هذه الأناشيد والأمثال تعود للتراث المشرقي البابلي والكنعاني وكذلك المصري.

وعودة إلى عام /1873/ ميلادي حيث كان قنصل بروسيا في دمشق السيد فيتزشتاني يراقب أعراس الفلاحين السوريين فأدهشه التشابه الكبير بين أغانيهم في تلك المناسبات ونشيد الإنشاء. يقول القنصل: يعدّ الأسبوع الأول بعد الزفاف أجمل أيام الفلاح السوري. فالعروسان يمثلان الملك والملكة وتقوم القرية كلها على خدمتهما.

وبعد أن يصف ما يجري في تلك الأعراس يضيف أن الأغاني التي كانت تُغنى هي عبارة عن قصائد غزلية تتجلى بالجمال الجسدي للعروسين وهذه خصلة منتشرة في بلدان المشرق العربي منذ القديم حيث يمكننا توثيقها في مجمل الأساطير والملاحم وقصائد الحب التي يزخر بها العالم الكتابي للمشرق القديم. (18)

وفي هذا المجال أيضاً حريّ بنا الإشارة إلى ما ورد في سفر التكوين التوراتي – الأصحاح 18 حيث أن يهوه التوراتي وشخصيتان قدسيتان / ملاكان / زاروا ابراهيم التوراتي الذي كان حزيناً لأن لا ولد لديه حيث يعده يهوه / الإله الزائر !/ بولد سوف يأتي.

في موازاة هذه القصة المنتحلة نقرأ في ملحمة أقهت ابن دانيال الأوغاريتية قبل كتابة التوراة بحوالي ألف سنة، أن الإله بعل يظهر لدانيال الحزين لعدم وجود ابن لديه حيث يعده بعل بولد يسميه أقهت.

الفارق بين الوثيقة الأوغاريتية والقصة التوراتية المنتحلة هو أن ابراهيم التوراتي كان يجلس أمام خيمته، في حين أن دانيال كان يجلس أمام بيته تبعاً لثقافة الشخصيتين.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو كيف اطلع الأحبار الذين كتبوا التوراة في القرن السادس قبل الميلاد على وثائق أوغاريت التي تعود إلى حوالي ألف سنة سالفة.

والحقيقة أن هذا يشير إلى عمق التداخل والتفاعل المشرقي بما يؤكد على الوحدة الحضارية للمشرق العربي القديم. فلا ريب أن مثل هذه الملاحم والقصص الأوغاريتية / الكنعانية / كانت تجري على الألسن بما يعني أنها كانت مرويات شعبية عمت مختلف مدن المشرق العربي وكان طبيعياً أن تنتقل إلى بلاد كنعان الجنوبية بحيث يتداولها الناس هناك وهذا ما جعل العبرانيين يطلعون عليها ومن ثم ينتحلوها ويدونوها في توراتهم.

ويشير الدكتور حتّي إلى أن اليهود حين طرأوا إلى كنعان اقتبسوا دفعة واحدة مجموعة من الطقوس والمشاهد والمراسيم القديمة وعبادة الحية

والعجل الذهبي. بالإضافة إلى أن الأشعار التوراتية التي تتصف بالتوازي والمطابقة أخذت من الشعر الأوغاريتي. (19)

أيضاً أبانت الحياة اليومية في كنعان من خلال الوثائق أن ما ورد في سفر صموئيل الثاني من رقص لداود التوراتي أمام تابوت العهد، لم يكن سوى تقليد لرقصة كنعانية خصبية تختص بمظاهر الثقافة الزراعية. كما أن وثائق أوغاريت أبانت عن تحريم طبخ الجدي في لبن أمه. وهذا ما سوف نرى صداه في التوراة. ويعود حتّي للتأكيد على أن العبرانيين اتبعوا النموذج الكنعاني في الموسيقى وعادات الدفن وفكرتهم نحو الحياة والموت وما بعده حتى أن لباسهم وحليّهم وحرفهم تتبع الأساليب الكنعانية.

ولا يغرب هنا عن بالنا أن قصة داود الذي قتل الرجل الفلسطيني إن هي إلا انتحال وسرقة من تراث المشرق الذي يتبدى في الحكايا الشعبية المتعلقة ببعل أو الخضر أو مار جرجس الذي يقتل التنين.

ويشير المؤرخ ترومان إلى أن جميع الأعياد اليهودية ما عدا الفصح كانت بالأصل من الطقوس الدينية الكنعانية.(20)

أيضاً تصف لنا وثائق أوغاريت أن لقب الإله بعل هو " راكب السحب " وهذا ما سنجد مطابقة له في وصف يهوه بـ " راكب القفار "....كما أن صوت بعل في أوغاريت هو الرعد وهذا ما نجده في التوراة على أن صوت يهوه هو الرعد.

ويشير جيمس بريستد إلى أن مقدار التراتيل الكنعانية التي عثر عليها في أوغاريت تساوي نصف حجم كتاب المزامير في التوراة. (21)

أيضاً تذكر وثائق أوغاريت التكوينية / خلق العالم والإنسان / أن الإله يجلس على المياه ونجد في الإصحاح الأول من سفر التكوين أن روح الله ترفّ على المياه.

كما أن الأسطورة الأوغاريتية تشير إلى الإله بعل الذي انتصر على التنين لوياثان ذي الرؤوس السبعة. وهذا ما سنجده في التوراة في سفر أشعيا حيث أن الرب يعاقب بسيفه القاسي العظيم الشديد، لوياثان الحية الهاربة ويقتل التنين الذي في البحر.

وتشير أيضاً وثائق أوغاريت إلى ما يسمى بحق البكورة، حيث أن هذا التقليد يعبّر عن أن الابن الأكبر في العائلة له نصيب مضاعف وله وضع متميز بالبيت والعائلة الكنعانية، كونه هو الذي سيقدم العون لوالديه في سن الشيخوخة وهذا التصور عائد إلى الخلفية الكنعانية التي تعتبر أن الابن البكر يخص الإله أي أنه يتمتع بسمات مقدسة تميزه عن باقي الأخوة.

وتقتضي الأعراف الكنعانية بأن الأب يستطيع أن يحرم ابنه البكر من حق البكورة هذا إذا اقترف هذا الابن جريمة بحق أبيه / سرقة – عدم احترام..الخ /.

نلاحظ أن هذا التقليد الأوغاريتي تم انتحاله في التوراة حين باع عيسو التوراتي البكورة ليعقوب لقاء صحن من العدس !.

إن هذا يشي بمبلغ الاستخفاف الذي يحمله كتّاب التوراة لجوهر ومعنى النصوص والطقوس والتقاليد الكنعانية وفي مجال الزمن نلاحظ أن الكنعانيين قسموا الوقت العادي إلى دورات سباعية: سبعة أيام، سبع سنوات، وهذا ما انتقل إلى التوراة حرفياً.

كما أن وثائق أوغاريت أبانت عن مجموعة حكم وأمثال لشخص أوغاريتي يدعى شوبيا فيلوم الحكيم، حيث نلاحظ تشابهاً واضحاً بينها وبين ما ورد في كتاب الأمثال التوراتي المعزو إلى سليمان التوراتي.

إن كتاب التوراة يطفح بمبلغ الانتحالات من كافة مجالات الحياة الكنعانية سواء الحرفية أو الزراعية أو الحقوقية أو الدينية أو الشعائرية والطقسية إلى ما هنالك.. وهذا ما يوضحه كاسيدوفسكي بقوله:

" لقد كان الكنعانيون قد بلغوا درجة عالية من الرقي لا تزال القبائل اليهودية المتنقلة بعيدة البعد كله عن بلوغها ولم يكن هذا التفوق الحضاري إلا أن يؤثر على اليهود المتنقلين الذين يعيشون في الخيام " (22)

ويشير هذا الباحث في معرض مناقشته لنشيد الإنشاء التوراتي والذي نسب لسليمان التوراتي إلى أن المنشأ الفلوكلوري لنشيد الإنشاد التوراتي ينفي كون سليمان هو مؤلفه ويدحض بالتالي التقليد التوراتي نفسه. حيث أن النتائج التي توصل إليها العلم الحديث تؤكد صحة هذا الاستنتاج نهائياً. فقد تبين بنتيجة التحليل اللغوي لهذا النشيد أن لغته أحدث من اللغة العبرية القديمة إذ أن فيه من التعابير الآرامية والهلنستية ما يؤكد بصورة قاطعة أنه كتب بعد السبي البابلي أي بعد عام /532 /ق.م حينما كان تأثير الثقافة الإغريقية قوي جداً في فلسطين.

أما فيما يختص بكتاب الأمثال المعزو إلى سليمان التوراتي فتؤكد الأبحاث الأثرية أيضاً والتي جرت في مصر والمشرق العربي على عدم صحة التقليد الذي ينسب كتاب الأمثال إلى سليمان.

حيث أن الوثائق المصرية العائدة للفترة بين/ 2450-2315 /ق.م أمدتنا بوثائق تختص بأحد الأمراء المصريين المقيمين في قصر فرعون

بحيث ورد فيها مجموعة نصائح حياتية وجهها إلى ابنه صيغت على شكل أمثال. (23)

كما أن الوثائق المسمارية السومرية والآشورية والكلدانية والكنعانية والتي تحتوي على مثل هذه الاتجاهات الذهنية تبين أن التوراة اقتبس عنها الكثير بعد أن نسبها إلى سليمان التوراتي.

انتحالات التوراة من تراث المشرق العربي الرافدي:

ذكرنا سابقاً أن فترة تواجد العبرانيين المسبيين إلى بابل في حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد استمرت لأكثر من خمسين عاماً، ثم وبنتيجة مرسوم الملك الفارسي قورش سمح لهم بالرحيل إلى فلسطين بحيث بدأوا بالرحيل نحو فلسطين على دفعات.

وفي هذه الفترة / نحو نصف قرن / جرى تدوين التوراة في أسفارها الخمسة الأولى وتم اختراع ابراهيم التوراتي والآباء الآخرين وموسى وغيرهم.

والحقيقة أن بابل الألف الأول قبل الميلاد كانت تشكل بوتقة الحضارة المشرقية الرافدية التي جبّت كل المخزون الحضاري للرافدين منذ ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد لا بل ومخزون المشرق الحضاري بجناحيه.

بمعنى أن كان لدى أحبار العبرانيين، كتّاب التوراة.. حقولاً معرفية هائلة، علمية وذهنية وأدبية وطقوس وحكايات شعبية رافدية، جعلهم يغرفون من هذه المعارف ويدونون في التوراة مضافاً إلى هذا اختلاق شخوص الآباء / ابراهيم – اسحق– يعقوب/ بحيث أعادوا تواجدهم إلى مطالع الألف الثاني قبل الميلاد / طبعاً بعد إعجابهم بحضارة المشرق الرافدية /.

والأمر الخطير الآخر هو انتحالهم للتراث الأسطوري المشرقي الرافدي ومحاولة تشويهه لخدمة مآربهم الحاقدة والتي تشي بمعاندة لقيم التفاعل الاجتماعي الحضاري. كما نلاحظ هذا في أسطورة الأخوين المزارع والراعي* والتي تعرف بقابيل وهابيل والتي حرفها الأحبار بحيث يمسي الراعي هو المظلوم بحيث يبرر الحقد على أخيه المزارع علماً أن الأسطورة المشرقية تنتهي بالتصالح بين قيّم الزراعة والرعي في مفهوم متوازن للحياة الإنسانية وسيرورتها وماهيتها.

أيضاً نجد في الجانب الحقوقي والتشريعي أن كل القوانين المشرقية كانت قوانيناً إنسانية / أممية ولم تختص بأرومة أو عرق أو شعب، في حين نجد أن القوانين العبرانية التي تعود في أرضيتها الأساسية إلى القوانين المشرقية، جرى إنجازها وفق ثنائية / العبراني – الآخر / بمعنى أن القوانين تختص بالعبرانيين وتقتص من غير العبرانيين وهذا ما نجده في جواز أخذ الربا من غير اليهودي وتحريم ذلك على اليهود وفيما بينهم.

ففي مجال الحياة الحقوقية والقانونية:

انتحلت التوراة مجمل القوانين البابلية / حمورابي / والآشورية والكنعانية والمصرية والحثية. فمثلاً، إن مبدأ العين بالعين والسن بالسن جرى انتحاله في التوراة. وكذلك معاقبة الابن الذي ينتهك حرمة والديه، وكذلك عدم جواز الزواج من مومس.... وهكذا..

*** هذه الأسطورة أو المناظرة سومرية المنشأ، تعالج الصراع السلمي بين الحياة أو الثقافة الزراعية والحياة أو الثقافة الرعوية / أسطورة أو مناظرة دموزي وانكيمدو / .**

انظر: منعطف المخيلة البشرية – صموئيل هووك – ت: صبحي حديدي – دار الحوار – سورية 1983 ص28.

ويشير د. أحمد سوسه إلى أن الفارق بين القوانين المشرقية والقوانين العبرانية يتجلى في أن الأولى هي قوانين مدنية تتحلى بروح من التشريع تعادل أرقى ما نجده في شرائع اليوم بينما تبقى شرائع التوراة شريعة كهنوتية تزج الرب والكهنة في حل قضايا مدنية.(24)

وفي مقارنة بين ما أمدنا به موقع مدينة نوزي الرافدية والذي يرقى لحوالي 1500 قبل الميلاد وبين ما أُنتحل في التوراة نستطيع أن نقارب ما يلي:

1- ذكرت وثائق نوزي أن بإمكان الرجل الذي بلا نسل أن يتبنى ولداً لإدارة أملاكه خلال حياته ثم يرثه بعد موته. وهذا ما نجده في التوراة في قصة تبنّي ابراهيم لـ أليعازر الدمشقي.

2- توضح وثائق نوزي أن الزوجة العاقر يمكن لها أن تقدم لزوجها جارية من أجل أن تنجب له ولداً أو أولاداً وهذا منتحل في التوراة فيما فعلته سارة لابراهيم وراحيل ليعقوب.

بمعنى أن ثمة اختلاق في هذه القصص ليس للشخوص فقط وإنما لمتن القصص.

وفي الاتجاه نحو قوانين حمورابي والتي تعود لما قبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد / الثلث الأول من الألف الثاني /، نلاحظ أن هذه القوانين تحدد أن الجارية المنجبة يجب أن تلد على ركبتي الزوجة العاقر في دلالة على أن ابن الجارية سيصبح وريثاً شرعياً للعائلة.*

وهذا ما نجده في رواية التوراة عن ابنتي لابان.

وكان ثمة تقليد مشرقي قديم يتجلى في أن يعمل الخطيب عند حميه عدداً معيناً من السنين بدلاً من تقديم المهر لعروسه وهذا ما نجد صداه في قصة يعقوب مع لابان في التوراة أيضاً.

ويبدو أن هذا التقليد المشرقي استمر للعصور الحديثة فقد أشار الرحالة السويسري بوركهارت في كتابه " جولة في سورية في القرن التاسع عشر"، أنه صادف شاباً سورياً عمل ثمانية أعوام لقاء طعامه فقط عند أهل عروسه. وفي نهاية المدة كان يريد الزواج من ابنة صاحب البيت.

وإذا ما رفض العمل فعليه أن يدفع حوالي 700 قرشاً لأبيها كمهر للعروس.(25)

ويشير " ديليتش " إلى أن العبرانيين أخذوا يوم السبت كاستراحة عن البابليين، حيث كان البابليون يرتاحون في يوم السبت لمصالحة الآلهة حيث أن الأيام التي تتداعى منه (14–21–28) هي أيام " لا يأكل فيها راعي الشعوب العظيمة لحماً مشوياً ولا يبدل ثيابه ولا يقدم قرباناً ولا يركب الملك عربته ولا تنطق الكاهنة بنبوءة، حتى الطبيب لا يضع يده على المريض ".

ويشير الباحث ديليتش إلى أن " التقليد الإسرائيلي لا يستطيع بالتأكيد تعيين مصدر السبت. ولا يمكن الشك أبداً في أننا ندين براحة يوم السبت لهذا الشعب المتحضر بين دجلة والفرات ". (26)

*** يشير كاسيدوفسكي في كتابه " الواقع والأسطورة في التوراة " إلى هذا الأمر بحيث يتبدى وكأن قوانين حمورابي تجيز هذه الصورة المجازية، بأن تنجب الجارية على ركبتي الزوجة العاقر. غير أن قوانين حمورابي لا تعطي هذا الوصف الذي نعتقد أن المؤلف استمده من التوراة وأسقطه على**

القوانين البابلية التي تجيز أن يتزوج الرجل من جاريته إن كانت زوجته عاقراً.

وقد أبانت وثائق المشرق أيضاً على أن نظام المكاييل والمقاييس والأوزان الواردة في التوراة مأخوذة بالكامل من تراث وحياة المشرق العربي القديم، حتى أن الشاقل / العملة الإسرائيلية الحالية / يعود في أساسه إلى الرافدين حيث يرد أن الشاقل البابلي كان وحدة للوزن تستخدم في مجال السلع والنقود.

وفي مجال التقويم والأعياد فالمعلوم أن التقويم البابلي كان قمرياً، وكان البابليون يقفون أمام ظاهرتين قمريتين هما شبطوم / حيث يكون القمر بدراً / وببولوم / حيث يكون القمر محاقاً/ وهذه الأخيرة تكون لها دلالة سيئة وذات فأل خطير على المجتمع كالكوارث أو الحروب أو المجاعات حيث يعمد الناس إلى الصلاة والصيام وتقديم القرابين وإقامة الطقوس.

أما في حال كون القمر هلالاً فهذا يدل على بدء شهر جديد وهو مناسبة لأداء طقس البدور.

ولعل كل هذا نجده منتحلاً في التوراة، حيث ورد في سفر اشعيا أن العبرانيين كانوا يقيمون العادات القمرية هذه / البدور – الأسبات /.

أما لجهة ما يسمى بعيد الغفران اليهودي، فقد درج الإسرائيليون على إطلاق معزى / تمثل عزرائيل / إلى البرية بما تحمله من دلالات طرد الشيطان إلى الصحراء.

والحقيقة أن وثائق المشرق العربي القديم أشارت بعمق إلى أن هذا الطقس المشرقي يطلق عليه اسم " طقس البدل " حيث يتم خلاله إطلاق جدي أو معزى إلى القفار كبدل عن إنسان مريض، أو عند حصول كوارث أو

جائحة ما. وباعتقاد المشرقيين أن هذا سيؤدي إلى عودة السلام وانتهاء المرض.

ولا يخفى هنا أن هذا الطقس يندخل تحت عباءة الطقوس المجتمعية في معناها الواسع لما فيه خير وسلامة واطمئنان المجتمع تماماً كما كان يجري على الأفراد المرضى.

وفي مجال الختان للذكور، تجمع الدراسات على أن العبرانيين اقتبسوا هذه العادة عن المصريين متأثرين برمزية هذه العادة.

ويذكر هيرودوت أن اليهود اقتبسوا هذه العادة عن المصريين الذين أخذوها بدورهم عن الأثيوبيين.

إن كل ما ورد ذكره يؤكد مقولة صموئيل هوك من أن الحضارة التي شيدها سكان بلاد النهرين كان لها تأثير كبير على حياة العبرانيين.(27)

ويشير إلى أننا الآن في وضع أكثر ملائمة من أي وقت مضى لتوضيح علاقة العناصر الأساسية للديانة اليهودية بشبكة الشعائر الدينية التي كانت سائدة في البيئة العربية القديمة من وجهة نظر تاريخية جديدة.

إن نصف مليون وثيقة مسمارية من المشرق العربي القديم أضاءت على مبلغ الأكاذيب والانتحالات والمغالطات والتزويرات التي جرى حشي التوراة بها، ما أعطى دليلاً أكيداً على أن العبرانيين كانوا في تاريخهم عالة على الشعوب ليس المشرقية فقط بل والمصرية والحثية كذلك.

ولعل المنجز الأسطوري المشرقي والذهني بعامة يوضح كيف تم اقتباس جملة من المفاهيم والإبداعات المشرقية من خلق الإنسان من الطين مروراً بالبعث والقيامة والثواب والعقاب وقصة آدم وحواء وقابيل وهابيل والطوفان ويوسف وولادة موسى وأيوب الصبور.

وعلى هذا يصرح الباحث الأمريكي" صموئيل كريمر:

" إن المجموعة العظمى من المآثر الأدبية في التوراة، لم تظهر إلى الوجود وهي كاملة النمو كالأزهار الصناعية النامية في الفراغ. وإنما تجد جذورها وتمتد امتداداً عميقاً في الماضي وتنتشر انتشاراً واسعاً في المجتمعات المجاورة " (28)

الجدير ذكره في هذا المجال هو أن بعض الاقتباسات والانتحالات التوراتية لم توفق لجهة العلم، ما يدل دلالة قاطعة على بساطة وأوليّة ذهنية كتّاب التوراة فالمعلوم أن قصة الطوفان البابلية تم اقتباسها إلى التوراة والغريب أن ترد هذه المروية في التوراة في طريقتين كلتاهما لا يمكن حدوثهما وفق العلوم الطبيعية لا بل وأن الواحدة منهما تختلف عن الأخرى اختلافاً بيّناً.

فالرواية الأولى تحدد مدة الطوفان بـ 365 يوماً بينما تحددها الثانية بـ 61 يوماً. ويشير الباحثون أيضاً إلى أن سلسلة الروادع المشرقية التي أخذت منحى اجتماعياً – إنسانياً مثل عبارات: لا تقتل – لا تزني – لا تسرق.. الخ، نُقلت حرفياً إلى التوراة مع افتراق هائل حيث أن التوراة خص فيها العبرانيين فقط في تعاملهم مع بعضهم البعض ولكن فيما يجاوز ذلك فلا مانع على اليهودي أن يستبيح كل شيء عند الآخرين من غير اليهود.

مصير العبرانيين في بلاد كنعان:

بعد احتلال قورش الفارسي لبابل عام /579 /ق.م، وإصداره مرسوماً يجيز للعبرانيين العودة إلى فلسطين، بدأ هؤلاء بالرحيل عن بابل بشكل

دفعات وذكرنا أن معظم من رحل كان من الفقراء والذين لا رابط يربطهم مع الحياة في بابل بمعنى أنهم لن يخسروا شيئاً من ذلك.

في حين أن أغنياء العبرانيين والملاكين وأصحاب النفوذ فضلوا البقاء في بابل عن التوجه إلى فلسطين. والذي يبدو أن طلائع المغادرين مضوا بعد أن منح الملك الفارسي زعيم الرحلة شيشبعر لقب والي على مقاطعة أورشليم التي شملت مناطق محددة هي عبارة عن الامتدادات الشمالية لمرتفعات يهوذا مع بعض الاستيطانات باتجاه غور الأردن إلى الشرق وباتجاه سهل شفلح إلى الغرب.

ثم تتالت الهجرات العبرانية وكان على رأس بعضها عزرا الكاهن وفي أخرى نحميا.

ويبدو من الدلائل الأثرية البسيطة التي عثر عليها في تلك المنطقة والتي تعود لفترة ما بعد السبي أن الاستيطان العبراني امتد من موقع تل النصبة إلى الشمال، وحتى موقع بيت زور جنوباً ومن أريحا شرقاً إلى جازر غرباً.

ويبدو أن هذه المناطق وقعت تحت السيطرة الإدارية لولاة أورشليم.

ويمكننا النظر إلى هذا الاستيطان بكونه توضع بشري بسيط لم يعط أي دلائل عمرانية أو وثائق / خلا التوراة في أسفاره المتزامنة مع هذا الحدث / أو لقى يمكن أن يعتدّ بها.

ومع حوالي /400 /ق.م سوف تتوقف المصادر العبرانية عن كتابة الأحداث التاريخية فجأة ما يعني أن العبرانيين بقوا على هامشيتهم وانغلاقهم من دون أي دور على صعيد الحضارة الإنسانية.

ومع العصر الهلنستي/ 333-69 /ق.م وهو العصر الذي شهد انفتاحاً ومثاقفة على مدى العالم المتوسطي ومن ضمنه المشرق العربي: كان لا بد أن تتصادم الإرادات الهلنستية الكونية مع الإرادات العبرانية المنغلقة ما سوف يؤدي إلى التصادم العسكري بما يوحي بتأديب قيم الانغلاق والتقوقع.

ومع العصر الروماني تعرض اليهود للتأديب من قبل الرومان ففي عام /70/ ميلادي هاجم القائد الروماني تيطس القدس ثم في عام/ 137/ ميلادي سوف يتم اقتلاع جذور جماع السكان اليهود من فلسطين.

وعلى جري عاداتهم في المبالغات وإضفاء الفخامة على تواجدهم يأتي التملود ليذكّر أن تدمر ساعدت الرومان في مهاجمة العبرانيين وطبعاً لا يخلو الأمر هنا من صب اللعنات على تدمر كما على " بابل الزانية " !

فقد جاء في التلمود:

" يا لسعادة من سوف يرى نهاية تدمر، فقد اشتركت في هدم المعبد الأول والثاني.. ففي المرة الأولى قدمت80 ألفاً من الرماة !! ولهدم المعبد الثاني 8 آلاف ! " (28)

إن مجرد قراءة هذه الأرقام توحي بمبلغ التناقض والمبالغات وهذا ما ألفناه في كتاب التوراة أيضاً.

وبعد كل ذلك سوف يتشتت اليهود بعد تدمير الرومان للقدس عام/137/م، في البلدان المحيطة وهؤلاء من يطلق عليهم اليهود الشرقيون الذين لا رابط يربطهم مع المتهودين الحاليين الذين اغتصبوا فلسطين في حوالي منتصف القرن العشرين بعد استعارتهم لكتاب التوراة بأكاذيبه ووعوده

وتمّ الإيحاء إلى أنهم يعودون من جديد إلى أرض الميعاد التوراتية نتيجة وعد إلهي لهم.

وهنا تنبغي الإضاءة على جذور المتهودين الحاليين الذين اغتصبوا فلسطين لتبيان مبلغ القطيعة بينهم وبين اليهود الشرقيين الذين طرأوا على بلاد كنعان وانتهوا منها بحدود /137/ م.

وهذا ما سوف يقودنا إلى القرن الثامن الميلادي، والمنطقة جنوب روسيا.

فآنذاك كان ثمة مملكة وثنية هي مملكة الخزر وتقع في جوار مصب نهر الفولغا في بحر قزوين. وتذكر المعطيات التاريخية أن ملك هذه المملكة كان وثنياً بالإضافة إلى قبائلها التي تعود إلى أصول تركية مغولية.

ولعل المعطى السياسي العام لتلك الفترة يدل على أن العالم آنذاك كان ينقسم بين إمبراطوريتين، إسلامية ومسيحية. وكان الاتجاه العالمي العام آنذاك أن الوثنية هي بربرية وأن الأديان هي الحضارة ومعنى الوجود الإنساني. وعليه فعلى ملك الخزر أن يختار بين أن يصبح مسلماً فيتبع الفاعلية الحضارية الإسلامية أو يعلن مسيحيته فيتبع الفاعلية الحضارية المسيحية. لكن هذا الملك رفض كلا الاتجاهين وأعلن تهوده.

ويذكر المسعودي أن ذلك تمّ في زمن خلافة هارون الرشيد/ 786-808/ وبذا فقد تماهى شعب المملكة مع حاكمها فتهوّد. وبذلك حقق هذا الملك جملة من المنجزات:

***أولها*: إيجاد هوية سياسية مستقلة عن القطبين المسيطرين على العالم آنذاك بلبوس ديني يهودي.**

ثانيها: الظهور أمام العالم بمظهر من يتبع ديناً " توحيدياً " في ابتعاد عن الوثنية الموصوفة بالبربرية في ذلك العصر.

والجدير ذكره هنا، أن حالة التهود هذه ولأنها ذات غايات سياسية لم تأخذ بالقيم اليهودية وتقاليدها وتعاليمها.

وعلى حد قول " آرثر كوستلر ":

" لم يأخذ الملك الخزري بالتعصب وبالخصائص النفسية اليهودية المعروفة "(30) حتى أنه لم يشرّع الختان. مع اعتقادنا هنا أن عدم تشريع الختان كان بسبب فرض البيئة الباردة لإشراطاتها والتي لا تحتم إجراء الختان.

وتشير الأبحاث التاريخية أيضاً إلى أن الملك سمح لشعبه أن يبقى على وثنيته وأن يحافظ على تقديس آلهته الوثنية.

والغريب في الأمر أن الأدبيات الخزرية كانت تعيد أصل هؤلاء المتهودين ليس إلى سام التوراتي وإنما إلى يافث بن نوح.

وفي عام 965 م سوف يجتاح الجيش الروسي هذه المملكة ويقضي عليها بعد حوالي 150 عاماً من التواجد. وهنا سوف تحصل هجرة الشعب الخزري المتهود إلى روسيا وأوروبا.

ومن هؤلاء المتهودين الذين تشردوا في الشتات جاء من اغتصب فلسطين في منتصف القرن الماضي.

يقول آرثر كوستلر:

" إن الغالبية العظمى من اليهود الباقين في العالم هم من أصل أوروبي شرقي. والأساس من أصل خزري. وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا يعني أن أسلافهم لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا، ولم ينحدروا من

كنعان بل من القوقاز. ويصير من الحقيقة أنهم يمثلون بدايات الجنس الآري، وأنهم أوثق انتماء وراثياً إلى قبائل الهون / المغول / والغجر منهم إلى ذرية ابراهيم واسحق ويعقوب " (31) /المشكوك في انتماءهم لها أيضاً/ .

ويصل للقول: " إن الرسالة العرقية التاريخية اليهودية تستند إلى الوهم والخداع ".

إذن نصل من كل هذا إلى أن لا رابط بين يهود الأمس ومتهودي اليوم، هؤلاء الذين أخذوا بمبادئ وأهداف الحركة الصهيونية والتي نبعت في أساسها من أسفار التوراة الخمسة الأولى ومن ثم بقية الأسفار، مستندة على أساس عرقي متواصل! عبر التاريخ. رغم أن كافة الدراسات الأنثروبولجية والإثنولوجية تجمع على استحالة رد شعب من الشعوب إلى جد واحد، وهذا ما يعني أن لا وجود لسلالة صافية من البشر تنتمي إلى عرق صاف وواضح.

وهذا ما أجمع عليه الباحثون الأنثروبولوجيون في بيانهم حول العرق الذي تبنته اليونيسكو حيث جاء فيه:

" لا يوجد الآن ولم يوجد من قبل ما يعرف بالعرق اليهودي. إن الشخص الذي يدين بالعقيدة اليهودية، ويمارس طقوسها هو شخص يهودي من حيث الدين، لكن هذه الحقيقة لا تفيد شيئاً في عرقه.

فالديانة اليهودية ليست في حال من الأحوال علامة على أي عرق مهما كان. وبالنسبة لليهود فمن المحتمل أنهم يرجعون إلى مصادر متباينة أكثر من أي جماعة أخرى معروفة في العالم.

إن الاعتقاد بوجود شيء يدعى العرق اليهودي هو أحد الأوهام الكبيرة في العالم وإن أقرب تسمية لليهود كجماعة هي القبيلة ". (32)

ثبت المراجع والهوامش:

***1*–د. توفيق سليمان – دراسات في حضارات غرب آسيا – دار دمشق – 1985.**

***2*– جان بوتيرو – المؤرخ والتوراة – ت: جهاد الهواش – عبد الهادي عباس – دار الكلمة – دمشق1999.**

3– أحمد سوسه – العرب واليهود في التاريخ – دار العربي – دمشق ط8.

4– المرجع السابق.

5– جان بوتيرو – بابل الكتاب المقدس – ت: روز مخلوف – دار كنعان دمشق2000.

6– المرجع السابق.

7– صحيفة الديار اللبنانية 1991/4/22– 1991/4/23.

8– زينون كاسيدوفسكي – الواقع والأسطورة في التوراة. ت: حسان اسحاق – دار الأبجدية دمشق1990.

9– فيليب حتي – تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – ت: جورج حداد وعبد الكريم رافق – دار الثقافة – بيروت1982.

10– جان بوتيرو – المؤرخ والتوراة – مرجع سابق.

11– ول ديورانت – قصة الحضارة – ج1+2– ت: محمد بدران – 1968.

12- سبتينو موسكاتي – الحضارات السامية القديمة – ت: السيد يعقوب بكر – دار الرقي – بيروت 1986.
13- فريدريك ديليش – بابل والكتاب المقدس – ت: إيرينا داوود- العربي دمشق1987.
14- زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.
15- مجلة البناء اللبنانية العدد 762- 1990/11/17.
16- زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.
17- أرنولد توينبي – تاريخ البشرية – مرجع سابق.
18- زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.
19- فيليب حتي- مرجع سابق.
20- المرجع السابق.
21- جميس بريست – العصور القديمة –ت: داود قربان – دار عز الدين – بيروت1983.
22- زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.
23- زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.
24- أحمد سوسه – مرجع سابق.
25- زينون كاسيدوفسكي – مرجع سابق.
26- فريدريك ديليتش – مرجع سابق.
27- صموئيل هوك – أصول الديانات العربية القديمة.
28- صموئيل كريمر – الأساطير السومرية.
29- عدنان البني – تدمر والتدمريون – وزارة الثقافة – سورية1978.

30- آرثر كوستلر – امبراطورية الخزر وميراثها – ت: حمدي صالح – دار الجليل – سورية1985.

31- المرجع السابق.

32- إشيلي مونتاجو – بيان حول العرق – ت: حسن بسام – وزارة الثقافة – سورية1977.

مراجع الفصل الأخرى:

- نقولا زيادة – في سبيل البحث عن الله – دار الأهلية للنشر – بيروت –2000.
- كارل ارمسترونغ – الله والإنسان – ت: محمد الجورا – دار الحصاد – دمشق1996.
- سيغموند فرويد – موسى والتوحيد – ت: جورج طرابيشي – دار الطليعة – بيروت1986.
- اسحاق شيغمان – مجتمع أوغاريت – ت: حسان اسحاق – دار الأبجدية – دمشق1989.
- اسحقاق شيغمان – ثقافة أوغاريت – ت: حسان اسحق – دار الأبجدية دمشق1989.
- سيتون لويد – آثار بلاد الرافدين – ت: محمد طلب – دار دمشق1993.
- بيير روسي – التاريخ الحقيقي للعرب – ت: فريد جحا – وزراة التعليم – سورية1980.
- محمد وحيد خياطة – قراءات في التوراة – دار طلاس – دمشق1987.

الفصل السادس

المؤرخون الجدد في" إسرائيل "
الانهيار الأخير للمدرسة التوراتية الأثرية

إذا كان الاستشراق الغربي قد تحرر من تأثيرات المدرسة التوراتية في الآثار والتاريخ بعد أن أثبتت الكشوفات الأثرية في المشرق العربي على انعدام وجود فاعل ومؤثر وحضاري للعبرانيين في المشرق العربي ولا سيما في بلاد كنعان الجنوبية مقارنة بما قدمه النموذج الحضاري المشرقي من فعل حضاري مؤثر في سياقات التطور الإنساني، صار بالإمكان الانتقال إلى خطوة متقدمة في إنهاء مفاعيل هذه المدرسة التوراتية، وهذه الخطوة تتبدى بشكل ملموس في ما اصطلح على تسميته بحركة المؤرخين الجدد في((إسرائيل)).

وطبعاً نحن هنا لسنا بوارد التصفيق لهم فالحقيقة لا تحتاج لمن يطيّب لها ويكيل لها المدائح لأنها مكتفية بنفسها ولنفسها، عنيت الحقيقية التاريخية المستندة إلى معطيات علم الآثار وليس على تهيؤات وأوهام وصور هوامية تحيّ الغرائز وتفجر مكنون الحقد والعنصرية والاستعلاء.

ففي الثلث الأخير من القرن العشرين بدا لمجموعة من الآثاريين الإسرائيليين الذين يعملون في حقل التنقيب والبحث الأثري أن كل ما سبق وتلقنوه عن أمجاد إسرائيل القديمة في فلسطين قد أخذ بالتهاوي نتيجة انعدام الأدلة الأثرية بشكل قطعي وجازم. فآثار المملكة الموحدة لداود وسليمان لا أثر لها، وهيكل سليمان المزعوم على نفس المساق وهكذا.

ونتيجة لذلك مال هؤلاء الباحثين إلى الحقائق العلمية والموضوعية وفي ابتعاد عما قامت عليه الطروحات الصهونية التي تغذي بالمال والإمكانيات دوائر البحث الأثري التوراتي ليس في فلسطين فقط بل وفي العالم.(1)

وقد نشر هؤلاء بحوثهم المستندة إلى الحقائق العلمية الأثرية وهذا ما أدى إلى تعرية الطروحات الصهونية والمدرسة التوراتية بما سيؤدي إلى تعرضهم للهجوم من قبل المؤسسات الصهيونية الإسرائيلية بالإضافة إلى المؤسسة الكهنوتية الإسرائيلية والدوائر الأثرية التوراتية.

وقد تلخص مبتغاهم في أن غاية أبحاثهم هو إظهار الحقائق العلمية وليس إثبات صحة النظريات الصهيونية والإسرائيلية التوراتية، ونتيجة لذلك فقد اصطدموا مع السياسات الصهوينة الساعية لتهويد كل أثر في " إسرائيل " ولو كان كنعانياً. ثم اصطدموا مع المرويات التوراتية والتلمود.

بما يذكر بمقولة " توماس طومسون ":

" عندما نبدأ بإسرائيل كما نفهم المصطلح، إسرائيل التي نعرفها من الكتاب، يلزمنا أن نعترف بأن فهمنا إسرائيل كشعب وكأمة لا علاقة له بأي إسرائيل تاريخية معروفة. إسرائيل التي نعرفها قد تمّ اختلاقها عن طريق الأدبيات التوراتية " (2)

إذن ثمة قطيعة تاريخية بين إسرائيل التوراة المفترضة وبين إسرائيل الحالية القائمة على كنيس وثكنة. " فمن غير الممكن تصور فكرة إله يعلّم الناس بالاستعانة بالأوهام بل بأوهام متناقضة " (3)

وإن كان ثمة مؤرخون جدد في إسرائيل فهذا لا يعني أن حركة وذهنية تهويد أي أثر في فلسطين قد توقفت، ولكن الحراك القائم الآن يصب في اتجاه الحقيقة العلمية بما يجرّد الدوائر الصهيونية والإسرائيلية من الشرعية التاريخية وهذا ما يؤكد الأساس الاغتصابي لفلسطين من قبل متهودي القرن الثامن الميلادي الخزريين.

وقبل الولوج إلى ما يطرحه هؤلاء المؤرخون، حريّ بنا أن نعرّج إلى رواية معاصرة تعبّر عن طبيعة الحراك المستمر في " إسرائيل " بين تيار المؤرخين الجدد والتيار المحافظ التوراتي.

ففي عام/ 2001/ ميلادي تم منح الباحث الإسرائيلي نحمان أبيجاد درجة الدكتوارة حول بحثه في موقع في فلسطين هو عبارة عن ضريح ونصب أثري أطلق عليه نصب " يد أبيشالوم ". وتوصل هذا الباحث في أطروحة الدكتوراة تلك إلى أن هذا الموقع / النصب، هو واحد من عشرين موقعاً أثرياً مقدساً عند اليهود.

وقد استند هذا الباحث في أطروحته على ذهنية توراتية، بما يعني أن الطروحات والمرويات جاهزة في التوراة وما على الباحثين الإسرائيليين سوى إثباتها على أرض الواقع الأثري.

حيث ورد في التوراة أن أبيشالوم نجل داود التوراتي أقامه لنفسه، حيث أنه كان متمرداً على والده. وبذا فإن هذا النصب أضحى مزاراً شعبياً لليهود للعن الأبناء المتمردين على آبائهم.

ويبدو أنه لم تطل فرحة هذا الباحث المحافظ، في حصوله على لقب الدكتوراة ولو سعى إلى ليّ الحقائق الأثرية لتدخل في إبرة المرويات التوراتية.

ففي تموز عام /2003 /للميلاد يعلن الباحث الإسرائيلي / البروفسور / جدعون بروستر وهو من كبار آثاريي إسرائيل أنه عثر على معطيات مادية تؤكد أن نصب " يد أبيشالوم " الواردة قصته في التوراة، وهو الذي يطلق عليه الفلسطينيون اسم " طنطورة فرعون " هو أثر مقدس للمسيحيين المشرقيين في فلسطين وليس لليهود كما جاء في نجاح نحمان أبيجاد بإطروحة الدكتوراة حول هذا الموقع.

وأثبت جدعون أن هذا الموقع المسيحي يعود للقرن الرابع الميلادي، حيث أنه ونتيجة للمعاينة الدقيقة للنصب تبين أن ثمة كتابة يونانية عليه تمّ محوها إلى حد كبير.

وبنتيجة البحث والتحليل تبين أن هذه الكتابة تقول:

" هذا هو ضريح القديس زخريا الكاهن، المؤمن، والد يوحنان " / يوحنا المعمدان/

إن هذه الرواية تؤكد بما لا يدع للشك مكاناً أن الحقيقة التاريخية المستندة إلى المعطيات الأثرية تبقى في الضامن لشرعية الحق في وجه الزيف والباطل.

واستناداً على هذا يمكننا تتبع أطروحات المؤرخين الجدد في إسرائيل: (4)

1- يسرائيل فنكلشتاين:

يقول يسرائيل فنكلشتاين وهو رئيس المعهد الأركيولوجي في جامعة تل أبيب، وهو يعتبر من رواد هذا التيار: " أثبت البحث الأركيولوجي في السنوات الأخيرة، أنه لم يكن هناك شريحة من اليهود يعرفون القراءة والكتابة. ومن يقول اليوم بالاعتماد على الوثائق فإنه يخدع نفسه. فلا توجد مواد مكتوبة من فترات التاريخ القديم. وما وقع من أحداث هناك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد / طروء العبرانيين إلى بلاد كنعان / كتبت بعد 500سنة من وقوعها وضمّت الكثير من القصص الوهمية ".

إذن ثمة نفي منه لقصص الخروج التوراتية ولسفر يشوع.

وفي معرض نقده للمملكة الموحدة / مملكة داود وسليمان/ يقول في كتابه: THE BIBLE UNCARTHED الصادر في عام/ 2001 /:

" في القرن العاشر قبل الميلاد، كانت أورشليم على حالة متواضعة. حيث لم يزد فيها عدد القرى عن عشرين قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن بضعة آلاف نسمة غالبيتهم من الرعاة المرتحلين.

ومن هنا، فإن الاحتمال ضعيف جداً في أن تكون قرية أورشليم الصغيرة هذه ومن ورائها إقليم يهوذا الخالي تقريباً من السكان قد صارت

مركزاً لإمبراطورية امتدت من البحر الأحمر جنوباً إلى العمق السوري في الشمال ".

وينطلق هذا الباحث إلى نقطة متقدمة حين يصرّح لصحيفة نيويورك تايمز:

" استناداً إلى فهمي، ليس هناك أي دليل على الإطلاق يثبت وجود مملكة موحدة عظمى حكمت من القدس أقاليم ضخمة. إن قدس الملك داود لم تكن أكثر من قرية فقيرة في ذلك الوقت. "

وفي مواجهة بين ما يمثله من تيار علمي جديد مقابل التيار المحافظ التوراتي يقول: " إن التاريخ التوراتي منذ عهد ليس ببعيد كان يملي مسار البحث والتنقيب الذي اُستخدم ليثبّت الرواية التقليدية. ونتيجة لذلك اتخذ علم الآثار المقعد الخلفي كتخصص علمي. وأعتقد أن الوقت قد حان لكي نضع علم الآثار في المقدمة ".

ويبدو أن هذا الطرح جاء كرد غير مباشر على ثنائية الكنيس والثكنة والتي شهدت اهتماماً من رجال حرب إسرائيل في الآثار التي تخص فلسطين والذين منهم موشي دايان والجنرال إيفال يادين الذي كان يقول:

" البحث عن الآثار بمجراف في يد، وتوراة في اليد الأخرى ".

وعلى جري هذا المساق يُعبّر فنكلشتاين عن رأيه في نقد التوراة بالقول:

" لقد بينت الحفائر أن إسرائيل القديمة قد نشأت من السكان المحليين للعصر الكنعاني البرونزي، ولم يظهر التنقيب أي أثر مادي يؤكد رواية التوراة عن الخروج، وليس ما يثبت توهان الإسرائيليين في صحراء سيناء ".

وفي موقف حاسم وواضح من اعتبار التوراة كتاباً تاريخياً ولا سيما في أسفاره الخمسة الأولى يقول فنكلشتاين:

" لقد فقد كتاب التوراة أهميته كمصدر تاريخي، وخصوصاً فيما يتعلق بأصول اسرائيل ومسألة المملكة الموحدة. فهذا الكتاب هو وثيقة متأخرة جداً كُتبت فصولها الأولى في القرن السابع وفق أبكر التقديرات ومن خلال منظور لاهوتي وإيديولوجي وسياسي.

من هنا فإن البحث عن الأساس التاريخي الكامن وراء الرواية التوراتية هو مهمة صعبة للغاية، إن لم تكن عملية مستحيلة ".

وفي نقده لرواية قصص الآباء وأصول إسرائيل الواردة في سفر التكوين والتي أعادت العبرانيين إلى ابراهيم التوراتي في مدينة أور الرافدية لحوالي 1900ق.م يقول:

" إن المصدر التوراتي الذي تحكّم بماضي البحث في أصول إسرائيل، قد تراجعت أهميته إلى حد بعيد في الوقت الحاضر ولم يعد من المصادر الرئيسية المباشرة. فكما هو معلوم أن أسفار التوراة ذات الصلة دونت في وقت متأخر وكان تحمل طابعاً لاهوتياً وإيديولوجياً مما يجعلها منحازة. لذا فإن البحث عن بذور تاريخية في روايتها لأصول إسرائيل يشكّل علمية سيزيفية متعبة، بالإضافة إلى عدم إمكانية حصولها من حيث الأساس ".

أيضاً يؤكد هذا الباحث نفياً تاماً لقدوم العبرانيين إلى بلاد كنعان بالشكل الذي تمّ تقديمه في التوراة حيث أن " الفترة الانتقالية بين البرونز الأخير وعصر الحديد الأول لم تشهد قدوم أي جماعات جديدة معروفة باسم العبرانيين ".

وهذا ما يؤكد مقولة التغلغل السلمي لجماعات مرتحلة بسيطة العدد وهزيلة الثقافة لوسط حضاري موغل في القدم، عينت الحضارة الكنعانية في شقها الجنوبي.

2- البروفسور الإسرائيلي زئيف هرتزوغ:

يبدو أن هذا الباحث يعاني من آثار كل ما تلقنه سابقاً من ذهنية ومعارف المدرسة التوراتية الأثرية لهذا نجده أكثر صدامية وهجومية على تلك المدرسة ولنتابع أقواله:

" هناك شرخ في رواية التوراة للتاريخ القديم، كشفته الأبحاث والحفريات الأثرية. والعلم الحديث كما تعلمون لا يعتمد الروايات المكتوبة بل الآثار في الأساس. وبات علم الآثار علماً مستقلاً.

وما يحصل لنا في إسرائيل هو أننا لا نريده علماً مستقلاً، نريد للآثار أن تثبت الرواية التاريخية التوراتية وهذا معاكس ليس للعلم فقط بل للحقيقة التاريخية أيضاً.

وإذا أردنا أن يكون لنا مكان محترم في الأكاديمية الدولية فعلينا أن نلتزم بأحكام العلم لا بأحكام السياسة والإيديولوجيا ".

ويرفض هذا الباحث قصة هجرة العبرانيين وتواجدهم في مصر كما ينفي تماماً سفر يشوع الذي يروي قصة حروب وهمية لدخول بلاد كنعان.

وفي خطوة حاسمة لجهة نفي التوراة في أسفاره الخمسة الأولى يقول: " إن التنقيبات الأثرية المكثفة في أرض إسرائيل خلال القرن الماضي / العشرين/ قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة. فكل شيء مختلق.

لم نعثر على شيء يتفق والرواية التوراتية.

إن قصص الآباء / ابراهيم – يعقوب – إسحق / في سفر التكوين هي مجرد أساطير.

نحن لم نهبط إلى مصر ولم نخرج بالتالي منها.

لم نته في صحراء سيناء.

لم ندخل فلسطين بحملة عسكرية واجتياح.

إن مملكة داود وسليمان التي توصف في التوراة بأنها دولة عظمى، كانت في أفضل أحوالها مملكة قبلية صغيرة.

ويصل للاعتراف:

" إنني أدرك باعتباري واحداً من أبناء الشعب اليهودي وتلميذاً للمدرسة التوراتية، مدى الإحباط الناجم عن الهوة بين آمالنا في إثبات تاريخية التوراة وبين الحقائق الأثرية التي تتكشف على أرض الواقع ".

3- الباحث الإسرائيلي مازار يقول في نقده لسفر يشوع:

" إنها غاية في الصعوبة أن نميّز الثقافة الإسرائيلية في عصر الحديد تمييزاً واضحاً ". وفي نقده للمملكة الموحدة التوراتية يقول:

" ليس ثمة بنىً معمارية وعمرانية ضخمة أو منشآت هامة يمكن أن نصفها بكل ثقة بالداوودية. إن البقايا المادية في أرض إسرائيل فقيرة ومتواضعة إلى حد كبير، خصوصاً إذا ما جرى مقارنتها بما أنتجته الحضارات الكنعانية والبابلية والآرامية والمصرية ".

4- الباحث الإسرائيلي ناخاي:

أيضاً في معرض نقده لثقافة الجماعات العبرانية المرتحلة الطارئة على بلاد كنعان يقول: " إن المخلفات المادية لمواقع عصر الحديد الأول في الهضاب المركزية في فلسطين تظهر أن أهلها كانوا على الديانة الكنعانية

وما من أثر يدل بشكل مباشر أو غير مباشر على وجود بذور للمعتقد التوراتي ولو بشكله الجنيني.

5- الباحث الإسرائيلي أوسيشكن :

يقول:

" إنه ليصعب على روحي الرومانسية أن تقبل بهذه الوقائع.. / الوقائع التوراتية لرؤية مملكة داود وسليمان / أرجو من الملك " سليمان أن يسامحني ".

جاء قول هذا الباحث بعد أن جرت التنقيبات الأثرية في موقع مجدو الفلسطيني حيث تبين أنه لا ينتمي إلى عصر سليمان التوراتي / القرن العاشر ق.م / بل إلى القرن التاسع.

6 –الباحث الإسرائيلي أمنون بن تور:

نقب هذا الباحث في موقع مدينة حاصور الفلسطينية وبنتيجة البحث توصل للقول: " إن فريقاً من الباحثين لا يكتفي بوصف إنجازات داود وسليمان على أنها نوع من المبالغات النصية في كتاب التوراة.. فهؤلاء الملوك كانوا شخصيات خيالية أو على أحسن تقدير مشايخ قبليين محليين ".

7 –الباحث الإسرائيلي نادفا:

يقول:

" إن قصة سليمان في سفر الملوك الأول هي قصة غير تاريخية في معظم تفاصيلها.. وأن مملكة سليمان ليست أكثر من مشيخة صغيرة ".

نصل من كل هذا وهو غيض من فيض إلى أن الحقائق التاريخية آخذة بإنهاء مفاعيل المدرسة التوراتية في الآثار خصوصاً أنه وفي هذه المرة بالذات يأتي الأمر من داخل إسرائيل وليس من خارجها.

ثبت المراجع والهوامش:

1 – يمكن الرجوع إلى كتابنا للاستزادة – دراسات في حضارة المشرق العربي القديم – الدراسة الثانية – مرجع سابق.

2 – توماس طومسون – الماضي الخرافي – مرجع سابق.

3 – موريس بوكاي – دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة – دار المعارف – مصر 1977.

4 – معظم آراء هؤلاء المؤرخين الجدد أخذت عن مجلة BIBLICAL ARCHAEOLOGY REVIEW من أعداد سنة 1999–2000.

ومن كتاب فراس سواح – تاريخ أورشليم – دار علاء الدين –2001– دمشق. ومصادر أخرى مختلفة ولا سيما / الإنترنيت /.

الفصل السابع

مقاربة سوسيولوجية – نفسية للثقافة العبرانية التوراتية

يعنينا في مقاربتنا النفسية في المستوى الجمعي للثقافة العبرانية كما وُثقت في التوراة، لا سيما في أسفاره الخمسة الأولى كما في سفر عزرا أن نوضح أن مساق هذه المقاربة تأخذ بعدين أساسيين:

***الأول*: في الصور والإبانات الهوامية التي انبثقت من خافية / اللاشعور / الأحبار الذين كتبوا التوراة والذين هم جزء من المؤسسة الكهنوتية التوراتية.**

وهذا يعني أن الاختلاقات التي تمخضت عنها المرويات التوراتية من إله مفترض / يهوه / إلى أرض موعودة، وصولاً إلى مقولة شعب الإله الخاص " شعب الله المختار" لم تكن نابعة من فراغ بقدر ما هي في المستوى النفسي مجموعة ضروب تعويضية لعقد الدونية والنبذ والتي ساهم الأحبار في المستوى الشعوري واللاشعوري بإذكائها.

ويبدو ضمن هذا المساق أن عقدة الاضطهاد تأخذ حيزها الواضح والمباشر عبر آلية داخلية شكّلها العقل الجمعي للأحبار وآلية خارجية تستخدم هذه العقدة لتحقيق غايات هذه المؤسسة لا سيما حين لا يميل الظرف الموضوعي لصالحها.

***الثاني*: في علاقة المؤسسة بالفرد وبالمجموع، وما يمكن أن تشكّله هذه الإشكالية من خلخلة في انتماء الفرد إلى المجموع أولاً وإلى المؤسسة ثانياً.**

بمعنى آخر، نحن أمام منحيين:

<u>أولهما</u>: إما أن تكون المؤسسة للمجتمع، وهنا يكمن البعد الإنساني بما يعنيه من ضمان للتطور وتحقيق الغايات المجتمعية السامية والإنسانية تالياً.

<u>ثانيهما</u>: أو أن يكون المجتمع للمؤسسة، وهنا نحن إزاء خلل في معايير العلاقة الإنسانية، بما يؤدي إلى شروخ في العلاقات الاجتماعية وعلاقة الفرد بالمجموع وتالياً بالمؤسسة.

وبرأينا أننا هنا نستطيع أن نقارب علاقة المؤسسة الكهنوتية التوراتية بالمجموع العبراني كونها تدخل ضمن هذا الحيّز.

وهذا ما تبدى في ما فعله عزرا الكاهن كاتب " شريعة الرب " في سفر عزرا والذي عاد من السبي ليشيع قيم التحجر والانغلاق وعدم التفاعل مع المحيط، لا بل وإزالة آثار هذا التفاعل عبر شرعنة تطليق اليهودي من غير اليهودية وطردها مع أولادها في سابقة تاريخية تعبّر عن مكنون رواد هذه المؤسسة الكهنوتية.

وهذا أيضاً ما تبدى وفق ناظم آخر، في علاقة المؤرخين الجدد في إسرائيل مع المدرسة التوراتية في علم الآثار والتاريخ بحيث أن وصف هؤلاء من قبل ساسة الحركة الصهيونية والتوراتية على أنهم " مارقون " و" خونة " و" أعداء الصهيونية " و " الكفار " و " ناكري التوراة " تماماً مثل ما هم يماثلون " ناكري المحرقة ".

إذن سوف نناقش هذين المنحيين، عنيت، المنحى الذي عبّر عن نفسه في أسفار التوراة بما يمكن تسميته بالمنحى الداخلي. والمنحى الثاني والذي عبّر عن نفسه بثنائية الفرد = المجتمع ↔ المؤسسة.

المنحى الداخلي:

1 – يهوه:

لعل أول تجليات يمكن أن نناقشها ضمن هذا المنحى هو اختلاق " يهوه " الإله التوراتي، بغض النظر عما يمكن أن يكون عليه قبل استعارته في التوراة من قبل الأحبار وإلباسه لبوس غاياتهم وأهدافهم.

تشير أبحاث علم النفس التحليلي إلى أن الألوهة هي تشخيصات للقوى النفسية، ولعل تأكيد وجودها الميتافيزيقي هو محض افتراض عقلي بمقدار ما هو كذلك القول بأنها مخترعات اخترعها العقل.

وفي معرض مناقشته لـ " يهوه " يشير كارل غوستاف يونغ إلى أن " يهوه " بما هو عامل نفسي مستقل ينتج آثاراً في الحياة الجمعية للشعب فيكشف عن طبيعته الخاصة.

فهو نموذج بدئي يجسد الجانب الغريزي والانفعالي من الخافية لدى من ابتكره(1) .

وتقدم هذه البحوث فرضيات على أن الإبانات الدينية هي تعبيرات نفسية تقوم في التحليل الأخير على الخافية. وتشعرنا هذه الإبانات بوجودها متوسلة بما يصدر عن النفس من تعبيرات ترشح من خلال الواعية البشرية بحيث تتخذ لها أشكالاً وصوراً مرئية معرضة هي بدورها للتأثيرات من الداخل والخارج. وهذا ما يفسر دخولنا في عالم من الصور تومئ إلى ما لا يوصف كلما تكلمنا عن محتويات دينية.

ولعل المتتبع " لشخصية " يهوه في التوراة، / هذا الذي صارع يعقوب فغلبه الأخير!/ إلى ما هنالك من تدخل منه في أضيق مجالات حياة الفرد العبراني / كما شاء كاتب التوراة / تعطي دلالة على البنية الثقافية للمجتمع العبراني الأولية الثقافة، والرعوية التي ليس ثمة رابط محسوس بينها وبين الألوهة مثلما العالم الزراعي وإيقاع الطبيعة فيه. لذا فإننا نجد أن نسق الألوهة والتدين في الثقافة الرعوية العبرانية يأخذ طابعاً مجرداً وحسياً في آن ومبتذل أيضاً.

ولعل التضارب المتبدي في شخصية يهوه في التوراة إلى حد التناقض المريع، تعبّر عن صراع خفي في المستوى النفسي لدى من خلقه من الأحبار بما يعني أن يهوه الذي هو تبدٍ للعبرانيين بشكل خاص غير أنه يملك مقومات التفوق على الآلهة الأخرى للشعوب المحيطة، تلك الآلهة التي كانت

نتاجاً طبيعياً في حركة الفكر المشرقي الأسطوري والذهني والمعبّر عن الخافية الجمعية عبر هذه الرموز الميتافيزيقية، عبر التفاعل مع الطبيعة والوسط الحيوي الطبيعي.

يقول " يونغ ":

" ثمة شواهد كثيرة على تناقض صورة يهوه، في صورة لإله لا يعرف الاعتدال في انفعالاته ويكابد من الآلام أشدها / تبعاً لخافية وشعور من ابتكره من الأحبار / بسبب افتقاره للاعتدال ويسلّم هو نفسه بأن الغضب والغيرة يأكلانه أكلاً ومعرفته لهذه الحقيقة تؤلمه أيما إيلام.

فقد جمع يهوه في نفسه البصيرة إلى الغباء والرحمة إلى الشدة والقدرة الخلاقة إلى روح التخريب، فقد كان كل شيء ممكناً، وما كان لصفة من صفاته أن تقف عقبة في وجه الأخرى، ومن كانت هذه حاله، فإما أن لا تكون لديه واعية مفكرة أو تكون قدرته على التفكير ضيقة جداً أو ظاهرة شبه عرضية.

وفيما يشي بإنسانية يهوه / كونه ابتكار إنساني وليس تجلٍ إلهي / هو مبلغ السهولة التي ينقاد بها إلى وساوس الشيطان. على حد قول يونغ. (2)

إذن إن اختلاق يهوه على صورته التي أرادها الأحبار العبرانيون وتحميلها لكل ما يمكن أن تحمله من مكنونات سلبية وبواعث حقد واستعلاء وعنصرية لا يمكن إلا أن تعبّر عن ذهنية وخافية الأحبار الذين يمثلون مؤسسة كان المجتمع لها ولم تكن هي لمجتمعها.

وعلى هذه القاعدة فإن رمزية يهوه بما تحمله تُسقط على الأفراد الذين لا يفهمونها طالما كانت في بُعدها الرمزي وهذا ما يؤدي إلى تجميع هؤلاء

الأفراد بعضهم إلى بعض كما لو أن قوة مغناطيسية تجتذبهم، وعلى هذا يتشكل في ذلك جمع من الرعاع سرعان ما نجد زعيمه الذي سوف يطلق العنان لكل شيء جاهز للانفجار. وهنا يتشكل ما نطلق عليه ثنائية الكنيس والثكنة.*

ولعل ابتكار يهوه بصورته المنمذجة وفق تصورات الأحبار كانت نتيجة ما عانى منه المجموع العبراني من تشتت وسبي كان سببه الأحبار أنفسهم وشيوخ القبائل وهذا ما استدعى أثناء السبي ابتكار قوة غير بشرية هي في الحقيقة كامنة في خافية الأحبار.

والذي يبدو من ذلك أن كون الثقافة العبرانية في بلاد كنعان كانت ثقافة القبيلة فإن مستوى الارتياب والحذر والشك يكون في أقصاه تجاه الآخر ما استتبع فيما بعد ضروب الحقد على الآخر ورفض التفاعل معه.

وتشير المدرسة التحليلية في علم النفس إلى نقطة مهمة، عنيت بها أن الخافية ليست بالضرورة ذات صفة تدميرية بحد ذاتها، فهي تحوي قيمتين متناقضتين والذي يبدو أن الأمر يتوقف كلياً على تكوين الواعية التي تعترض سبيل محتويات الخافية إن كانت هذه المحتويات سوف تنقلب لعنة أو بركة.

ويبدو أن القوى الدافعة في حركة القبيلة النفسية والتي هي قوى النماذج البدئية، تحتوي في أساسها على أسفل وأعلى، على خير وشر وهذا ما يؤدي إلى آثار متضادة تماماً. غير أن آلية الذهنية التوراتية استطاعت استخدام هذا التضاد بشكل بارع عبر أن الخير هو لهذا الشعب الخاص والمختار لإلهه في مقابل الشر للآخر.

* لعل هذا يذكر بما درج عليه المجتمع الإسرائيلي حالياً، من إطلاق صفة النبي على قادته الذين يلتصقون بروحية كتاب التوراة وهم الخارجون من الثكنات، والمتماهون مع شخصيات التوارة المرضية مثل شمشون ويشوع.. إلخ.

لقد استطاع أحبار المؤسسة الكهنوتية من خلق حياة هوامية للجماعة العبرانية عبر:

- **خلق صورة هوامية لإله يجد كل فرد صورته فيه، ما يعني أنه اندغام الفرد في السيناريو الذي يتضمنه الهدف الهوامي المتجلي في رفض الآخر وأرض الميعاد.**
- **اختلاق حالة التفرد الهوامي عبر منح الفرد الاستعلاء على الآخر، كونه طفل الإله المدلل وبالتالي كون " إسرائيل " طفلة الإله المعذبة.**

إذن نصل من كل ما سبق إلى أن يهوه كانت تعبيراً عن تصورات الكهنة العبرانيين وما يعتلج في خافيتهم تبعاً لواعيتهم التي ساهموا في حرفها عن هدفها الإنساني السامي وهذا ما انعكس ثانية على خافيتهم التي شكلت نماذج مريضة عبّر عنها يهوه بما يفوق الوصف.

2 – الصورة الهوامية، أرض الميعاد التوراتية:

تتبدى الصورة الهوامية التوراتية في أن تشكّلها ضمن الواعية استمد أساساته من قيم الرفض والاستئثار. فرفض الآخر الأكثر حضارة والأشمل من جهة،/ كنعان /، بالإضافة إلى محاولة الاستئثار بالمنجز الكنعاني وبالأرض الكنعانية، وفوق هذا وذاك هو السعي لإيجاد شرعية تاريخية لتواجد عبراني مفترض في الرافدين يعود إلى /1900/ قبل الميلاد، عبر

شخوص وهمية / ابراهيم – يعقوب – اسحق / وبالتالي الوصول إلى تحقيق صورة هوامية تمتد من النيل إلى الفرات.

فإن كانت الجماعة هي تحقيق خيالي للرغبة، فإن خلق " وهم جماعي " يجعل الحلم يدخل ضمن المستوى الجمعي. ولعل رفض المؤسسة الكهنوتية لتفاعل المجموع العبراني مع محيطه أدى إلى السعي لأن تخلق بالإضافة إلى الصورة الهوامية، وهماً جماعياً لجماعة طُردت وشردت دونما أي سبب ! ما يشي بعلائم عقدة الاضطهاد متناسين مقولة نبوخذ نصر لصدقيا زعيم القبيلة العبرانية:

" أيها الوغد.. لماذا نكثت بالعهد ".

لقد سعت المؤسسة الكهنوتية عبر مروياتها التوراتية إلى خلق حالة تفاعل وانصهار أفراد المجموع العبراني وفق ناظم يؤدي إلى نشوء إيديولوجيا تستند حول وهم جماعي يتبدى في صورة هوامية تُعنى بأرض موعودة من إله خاص لشعبه الخاص، ولو على حساب الشعوب الأخرى في دلالة على عمق الاضطراب النفسي في المستوى الشعوري واللاشعوري الجمعي لمجموع الكهنة = المؤسسة العبرانية.

وهنا لا بد من التأكيد على أن المؤسسة العبرانية أضحت مساحة إسقاطية للثقافة والمجتمع الذي تنتج فيه. ولعل مكمن الخطورة هنا هو في نشوء جماعة متعصبة من المجموع حيث أن " الجماعة المتعصبة تجعل الانتماء إليها ارتفاعاً فوق مستوى الجماعات الأخرى المماثلة لها. وتعبّر عن شعورها بهذا الارتفاع سلوكياً ورمزياً.

ومهما تكن طبيعة المستند الذي يدعم هذا الشعور / فارق عرقي – تراث مجيد – رسالة خاصة – فارق حضاري / الخ... فإن قيمته الوظائفية في كفاح الجماعة هي الشيء الحاسم ".(4)

ويشير الباحث ناصيف نصار إلى أن الجماعة المتعصبة لا تُغذي شعور التفوق عند أفرادها إلا لتزيد شعورهم بالاحتقار للآخرين من أفراد الجماعات المماثلة. فالاستعلاء عند الجماعة مصحوب دائماً باحتقار ضمني أو مكشوف للآخرين.

ولما كان التعصب الجماعي ظاهرة مندرجة في علاقات المغالبة بين الجماعات فإنه يتحول بسهولة إلى انغلاق للجماعة على نفسها صوناً لها من الدخيل والغريب.. يضاف إلى هذا كله شعور كراهية ينبث في نفسية هذه الجماعة ولا يفصح عن نفسه صريحاً إلا في أوقات الشدة والحرج.

وعندما يجتمع الشعور بالتفوق والشعور بالكراهية والاحتقار تجاه الغير فماذا عسى الجماعة المتعصبة أن تفعل، إنها تسلك سبيل العدوان والظلم، مرتاحة الضمير وتسمي عداءها وظلمها للغير دفاعاً عن النفس.

لقد استطاع كتاب التوراة عبر مؤلفيه من أن يساهم وبإخلاص في خلق مجتمعات يهودية تعبّر عن مكنونات هؤلاء الأحبار ومن شذّ عن هذه القطعان اعتبر كافراً وهرطوقاً تنبغي محاسبته وليس أدل على هذا من موقف المؤسسات الصهيونية واليهودية من مواطنهم الديني اسبينوزا حين قال:

" إن اليهود استجروا كراهية العالم بأسره بانفصالهم الكامل عن جميع الشعوب الأخرى.."(5)

لا بل أن الكاتب اليهودي الألماني هنريك هايني كتب مخاطباً أحد رجال الدين اليهود:

" يبدو لي أنني حتى في أحسن عصوركم، في ظل ملككم داود وفي عصركم الذهبي، كنت سأفرّ منكم لأركض نحو هياكل بابل وآشور التي كانت ملأى بالحب ومرح الحياة "(6)

إن هذه المواقف والتي خرجت من أفراد يهود امتلكوا أدوات التفاعل مع المجتمعات الأخرى التي تواجدوا فيها، مع الإشارة هنا إلى أن أدوات التفاعل هذه كانت في المستوى الفردي. تدفعنا إلى الانتقال إلى المنحى الثاني لجهة بحثنا، عينتُ علاقة المؤسسة بالفرد وبالمجموع على قاعدة إما أن تكون المؤسسة للمجتمع وإما أن يكون المجتمع للمؤسسة والذي يبدو أن النسق الأخير هو الذي يعنينا في مقاربتنا هذه.

المنحى الثاني:

المجتمع للمؤسسة العبرانية الكهنوتية:

وفق هذا الناظم، سيكون كل شيء معلّباً. الفرد شبيه الآخر، في حركة قطيع واحدة تُعبّر عن جماعة منقادة وفق قواعد ناظمة، منضبطة غير متفلتة.

فإن كانت قيم ومعايير المؤسسة سلبية في المستوى الإنساني، فسنكون أمام حالة من القطيعية الغرائزية التي لا تُبقي ولا تذر. وفي معظم الأحوال ووفق ناظم أن يكون المجتمع للمؤسسة فإن ما يتبدى هنا هو سلبية هذا المجتمع في قيم التفاعل والتمازج.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا، من أين تستمد المؤسسة قيمها ومعاييرها وقوانينها إن لم تكن من المجتمع الذي انبثقت منه، وهذا على قاعدة " كما تكونوا يولّى عليكم ".

إن هذا التساؤل يبقى مشروعاً ومباحاً لحين العثور على أجوبة مقنعة.

برأينا أن المؤسسة الكهنوتية العبرانية أثناء السبي البابلي قامت بشكل أساسي ليس كمبتغى ديني أو مناقبي بقدر ما قامت كرد فعل على احتمالات ذوبان العبرانيين في المحيط الذي يتواجدون فيه.

من هنا كان اختلاق معالم الاستعلاء والخصوصية والرفض وتكريسها ومتابعة هذا الأمر حتى بعد العودة من السبي إلى فلسطين بحيث بدت أكثر تطرفاً.

يقول جان فيزونوف في كتابه " دينامية الجماعات ":

" تحدث الظواهر الانحرافية الجماعية في آن واحد على مستوى المجتمع كله في حال تغيير بيئته وخاصة في حال احتكاك مجموعة متأخرة بمدنية أكثر تطوراً.. وعندما يصبح المنحرف وحيداً ويغدو عادم التأثير وينتهي إلى النبذ والطرد، فعليه أن يتدخل في وقت ومكان معينين حتى يستطيع أن يُسيّر تياراً ولو صغيراً. واللحظة الحاسمة هي التي يصبح فيها هذا المنحرف زعيماً ويصبح الملعون مُصلحاً بوجود حركة من التابعين الذين يتعصبون لمبادئه التي ما تلبث أن تنتشر وتنتظم وتنبثق عبر كل هذا امتثالية جديدة " (7)

وقد ذكرنا سابقاً أن استطاعة المؤسسة الكهنوتية العبرانية من فرض وشاح " ديني " على المجموع العبراني، بحيث أضحى كل ما يخص هذا المجموع من استقرار وطمأنينة / أفقدتها إياهما المؤسسة نفسها / لا يتحقق إلا من خلال صور هوامية وخلق وهم جماعي وخيال جماعي أيضاً لا رابط له في الواقع التاريخي والاجتماعي المعاش كما لا رابط زمانياً ومكانياً معه.

ولعل " ديديه أنزيو " قارب هذه المسألة في أن خلق الأوهام التي سرعان ما تتغلغل بعمق في الحياة الداخلية لكل الجماعات حيث أن مبعث هذه الأوهام ليس القلق والاضطراب بقدر ما هو موازاة بين الجماعة والحلم. حيث أن مناخ الجماعة يهدف إلى إثارة أو بعث بعض الأوهام لمصلحة التبادل اللاواعي الذي يوصل إلى بناءات وهمية أو إلى تحقيقات فعلية ولكنها جميعها محاطة بهالة من الخيال والرمز.

ويصل هذا الباحث إلى القول:

" إن الوهم الجماعي ينتج عن التعويض بالأنا الجماعية عن الأنا المثالية، شرط أن تكون الأنا الجماعية مُشبعة بعواطف كثيرة ممتزجة. وفي هذا التطور تلعب الجماعة دور الوسيط بين حقيقة حميمة خيالية وبين حقيقة اجتماعية ملموسة. ويمكن أن يتم الانتقال من الواحدة إلى الأخرى في الاتجاهين ".(8)

استناداً على هذا، فإن العلاقة بين المؤسسة الكهنوتية العبرانية والمجموع العبراني كانت علاقة تعليب للأفراد وضمن قالب جماعي وحيد كون أن هذا المجموع كان لخدمة المؤسسة وطروحاتها السلبية وعلى هذا بتنا نلاحظ عبر السيرورة التاريخية، أنه كلما تفاعل الأفراد اليهود مع المجتمعات الأخرى، كلما ازداد هامش الوعي الفردي تجاه اللاوعي الجماعي الذي صاغه الأحبار عبر التاريخ.

وعلى هذا نفهم مقولة أن الأفراد اليهود في المجتمعات المختلفة أبدعوا بعد أن تفاعلوا مع ثقافة المحيط لا بل أنهم وقفوا ضد معالم اللاوعي الجماعي والوهم الجماعي وكل الصور الهوامية التي أفرزتها المؤسسة الكهنوتية التوراتية وعلى هذا نفهم مقولة " اسحق دويتشر " اليهودي:

" يجري الآن في إسرائيل بمعنى ما، انتقال لليهودي وهويته، فالوعي الثقافي لهذه الدولة وعي عبري ولأنه يستمد جوهره التاريخي من التوراة والتلمود والطقوس التي ترجع إلى القرون الوسطى فهو يتغذى بأشباح الماضي " (9).

والحقيقة التي تفرض نفسها هنا، هو أنه وإن كان الكنيس عبر التاريخ يقوم بصياغة المجموع العبراني كما يريد، فإن تحالف الكنيس مع الثكنة في العصر الحاضر هو ما أسبغ على المؤسسة الكهنوتية العبرانية القديمة صفة الصهيونية، بحيث أن لا مجال للمفارقة بين تلك المؤسسة والصهيونية وليدة القرن التاسع عشر الميلادي.

ثبت المراجع والهوامش:

1 – كارل غوستاف يونغ – النازية في ضوء علم النفس– ت: نهاد خياطة – المؤسسة العربية – بيروت1992.

2 – كارل غوستاف يونغ – الإله اليهودي – ت: نهاد خياطة – دار الحوار – دمشق1986.

3 – استندنا في مناقشة هذه الفقرة على منهج الباحث النفساني DIDIEN ANZIEU ذو الجذور اليونفية من كتابه:
LE GOUPEET L' INCONSCIENT .
L' IMMAGiNAIRE GROUPALE .
E' DITION DUNOD 1er EDITION . 1975

4 – ناصيف نصار – من كتاب أضواء على التعصب – دار الأمواج – بيروت1993.

5 – اسحق دويتشر – من هو اليهودي – ت: نجاة قصاب حسن – دار العروبة – سورية1967.

6 – المرجع السابق.

7 – جان فيزوف – دينامية الجماعات – ت: فريد أنطونيوس – دار عديدات – بيروت1974.

8 – المرجع السابق.

9 – اسحق دويتشر – مرجع سابق.

الخاتمة:

يمكننا بعد كل هذا أن نؤكد على عدة استنتاجات:

1 – لا وجود للآباء المؤسسين اعتماداً على المعطيات الأثرية في مدن الرافدين والمشرق. / ابراهيم – اسحق – يعقوب /.

2 – لا وجود لموسى التوراتي ولا وجود لمعجزاته في سيناء.

3 – لا علاقة بين موسى التوراتي وأسفار التوراة الخمسة الأولى.

4 – الأسفار الخمسة الأولى من تأليف أحبار المؤسسة الكهنوتية العبرانية.

5– ثمة انتحالات هائلة وكثيرة جداً في التوراة مصدرها التراث المشرقي الرافدي والكنعاني.

6 – ليس ثمة تواجد عبراني فاعل في مصر.

7 – ليس ثمة رواية للخروج من مصر والتوهان في سيناء.

8 – ليس ثمة دخول عسكري لبلاد كنعان.

9 – ليس ثمة ثقافة عمرانية أو مادية أو روحية للعبرانيين كونهم كانوا بعيدين عن عوالم الاستقرار والتوطن. / تجمعات رعوية – قبلية / .

10 – لا وجود لمملكة داود وسليمان ولا لهيكل سليمان المزعوم.

11 – لم يكن السبي البابلي، محرقة، تعود للألف الأول قبل الميلاد.

12– إن ذهنية التحجر والاستعلاء والانغلاق هي التي سببت الآلام للعبرانيين القدماء.

13– التواجد العبراني في بلاد كنعان لم يتعد استيطاناً مؤقتاً ذي ثقافة رعوية وزراعية أولية.

14 – لا رابط بين عبرانيي الأمس ومتهودي اليوم.

1) لم تنفصل فلسطين في تاريخها عن عمقها المشرقي / بلاد الشام / بل كانت في دورة الحياة المشرقية عبر كل العصور.

2) لم يكن السبي البابلي مختصاً بالعبرانيين، بل شمل أرومات مختلفة وكثيرة ومنها الآراميين والمصريين.

3) العبرانيون ليسوا فصيلاً من الكنعانيين / كما يروج بعض الباحثين الأجانب والعرب والسوريين /.. بل هم من أرومة مختلفة عن النسيج الديمغرافي – الاجتماعي – المتوسطي المشرقي.*

ودليل ذلك:

أولاً: اختلاف خصائصهم النفسية عن خصائص المجتمع المشرقي النفسية المنفتحة والتفاعلية.

*** يمكن الرجوع إلى كتاب فراس السواح – تاريخ أورشليم – 2001.**

لتبيان آراء بعض الباحثين حول أن العبرانيين هم فصيل كنعاني أو عبارة عن تشكّل ذاتي محلي في أرض كنعان الجنوبية.

ثانياً: ثمة نص للفرعون مرنبتاح يعود إلى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ترد فيه كلمة " إسرائيل ".

حيث يشير الفرعون إلى تحقيقه لسلسلة من الانتصارات على جيران مصر وخاصة انتصاره على " إسرائيل " التي مُحيت ولم يعد لها بذور.

ونتيجة لتحليل لغة وكتابة النص تبين أنه وُضع إشارة إلى جانب " إسرائيل " تعني " شعب " بدلاً من كلمة " بلد " مثلما هو الحال بالنسبة لأسماء الأعلام والمدن الأخرى على هذا النصب.

ما يعني أن ثمة شعباً غريباً في بلاد كنعان وليس مدينة أو بلداً أصيلاً.

ولا بأس في النهاية من التذكير بمقولة ادموند جاكوب في كتابه " العهد القديم " حيث يقول:

" إن الظروف التاريخية كانت قد قادت إسرائيل إلى قمة الحماس كما قادتها إلى مهاوي اليأس.. لأنها ساهمت بكل كيانها في كل ما حدث لها ".

لمراسلة المؤلف:

دمشق .ص.ب: 12293

Khlif200 @ hotmail.com